زائـــــر النهـــــار

مجموعة قصصية

حسن الجوخ



زائر النهار

حسن الجوخ

* زائر النهار
* قصص: حسن الجوخ
* (358)
* لوحة الغلاف : عز الدين نجيب
* التدقيق اللغوى : عادل سميح
* الطبعة الأولى: ٢٠٠٥
* رقم الإيداع :١٤١٢١/٢٠٠٥

* المراسلات: باسم سكرتير التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - قصر العينى القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

الإهــداء

إلى الدم العــــربى ...
آمــلاً ألا يصــيــر مــاءً.

حســن

هكـــذا...

شـقـقنـا طرقـاً ودروباً. عـبـرنا بقـع الوحل عـلى أطراف المديـنة حـتـى وصلنا الـبـيت .. نـظرت لـى خطيبتى. قالت مندهشة :

- هى دى منطقة نسكن فـيها ؟!. دى عشـوائية خالص.

رددت عـلى الفور :

- آدى الله وآدى حكمـتـه. احـمـدى ربنا. غـيـرنا ساكن فـى القرب.

- حمداه وشكراه. بس ...

قاطعتها بسرعة :

- بس إية يا حـبيـبـتى. أى مكان يجـمعنا سـوا حيكون جنة بحبنا الجميل.

- كـلامك الحلـو ده بيـخلينى أدوب فـيك يا روح قلبى.

وربتت على كتفى بحنان دافق.

على بعد أمتار كان السمسار وصاحب البيت فى الانتظار.. امتدت الأيدى بالسلام فى برود :

- محمد أفندى وعروسته. المستأجر الجديد.

هكذا قدمنا السمسار لصاحب البيت. صعيدى، حاد الملامح. كوت الشمس بشرته فطبعتها بسمرة داكنة. مقاول مبانى عقر. رد باقتضاب شديد :

- أهلاً.

تابع السمسار خطاه فى صمت. دون أن يلتفت يمنة أو يسرة .. دلفنا إلى البيت. صعدنا حتى الدور الخامس: الأخير .. درنا فى الشقة. عايناها : حجرتان : ٣×٤، و ٣×٣. طرقة تسمح بالكاد بمرور شخصين متجاورين. حمام ومطبخ ضيقان. الحجرة الأولى تطل نافذتها الوحيدة على قرافة. أغلب مقابرها من الطوب اللبن. الثانية ذات شرفة متر فى مترين، تشرف على شارع خلفى مترب هادئ. نظرت

باشمئزاز إلى أكياس الزبالة السوداء المتناثرة فيه بلا رابط أو نظام .. قطعت خطيبتى لحظة الصمت التى طالت وباخت :

- الأوضة الأولى تنفع نوم. التانية تشيل طقم. الطرقة نحط فيها ترابيزة التليفزيون والكرسين البلاستيك.

فقال السمسار وصاحب البيت فى نفس واحد.

- يعنى عجبت يا عروسة. ألف مبروك.

ونظرا لى معاً فى صمت. والحدق يفهم .. فتحت حقيبتى. ولسان حالى يقول :

"إيه اللى غصبك على المر ..." نقدت صاحب البيت المقدم المتفق عليه: عشرة آلاف جنيه بالتمام والكمال - استدنت أكثر من نصفها من أقارب وأصدقاء وزملاء - ودسست فى يد السمسار مبلغاً. فرده وزغر لى فاهتزت ركبتاى. واضطررت أن أضاعفه له فى صمت تجنباً للمشاكل. آملاً أن تصير هذه الشقة أغنية دافئة. تلفنا فى برد

الشتاء، ونسمة رقيقة، ترد أرواحنا فى حر الصيف؛ فأنا بطبعى إنسان آمل، وخطيبتى طيبة بجد، مقطوعة من شجرة، آملت أن تصالحنا الأيام بعد طول خصام.

قالت خطيبتى لصاحب البيت فى ثقة وعفوية :

- تكتب لنا بقى العقد وإيصالات المقدم.

رد مبدياً دهشته واستغرابه.

- عقد ؟! إيصالات، اسمعى يا بت الناس كلمتى بألف عقد وألف إيصال، والراجل منا بيتربط من لسانه.

تلفت حولى أبحث عن السمسار؛ أستنجد به، فلم أجده، فص ملح وذاب، قلت فى شبه رجاء :

- يا معلم دى مسائل شكلية، إنما ليطمئن قلبى.

رد على الفور فى حسم، بعد أن ضرب كفاً بأخرى :

- يا أفندى اطمئن، حط فى بطنك بطيخة

صيفى، أنت بتكلم راجل، وعيب كده.

فصمت رغماً عنى .. وهبطت وخطيبتى فى هدوء، امتزج بالحيرة والقلق.

***

عدت من عملى، تتأبط زوجتى ذراعى كأى زوجين، يخيل لمن يراهما أنهما فى غاية السعادة، فوجدت باب شقتى مخلوعاً، لا وجود له. جريت أطمئن على منقولات زوجتى، التى وقعت على قائمتها وشاهدين باعتبارها أمانة فى عنقى، فوجدتها لم تمس بسوء، بلعت ريقى وحمدت الله، لكنى رحت أصرخ، أهدد، أتوعد.. بعد لحظة طالت أكثر مما ينبغى صعد صاحب البيت ومعه ثلاثة من أولاده، فارعى الطول مفتولى العضلات، عابسى الوجوه، فآثرت السلامة وصمت تجنباً للمشاكل، فأنا إنسان مسالم إلى أبعد الحدود .. بالطبع صعد سكان الشقق الأخرى على الضجة .. قال صاحب البيت - أمام الجميع - فى هدوء شديد وببرود أشد:

- باب إية ؟! المهم فيه حاجة اتسرقت ؟

- لأ، لكن باب الشقة نفسه اتسرق.

- باب الشقة احتجته في بيتي الجديد، فخدته

- وأنا مالي، أقفل على حاجتي إزاي ؟!

- غريبة!، بابي وخدته، كفرت؟!

- معقول ده يا ناس ؟!، مش ممكن، مستحيل !

العجيب حقاً في تلك اللحظة: زوجتي الجادة المحترمة اقتعدت الأرض، استغرقتها نوبة من الضحك المتواصل، لم تستطع إيقافه أو السيطرة عليه.. لما نظرت إليها مندهشاً قالت بهدوء شديد :

- فلسف الموقف يا محمد ليصيبك الضغط، أو يطق لك عرق.

على الضجة توافد بقية السكان، بسرعة ودون عناء فهموا السبب، قال أكبرهم سناً وأكثرهم وقاراً في هدوء شديد :

- عادي يا ابني، ما كل بيبان الشقق شالها

المعلم، واحد ورا التانى، وما حدش اتكلم، يعنى جت على بابك !؟

- بس ده حرام، ظلم، وافترا كمان، لازم أشتكى، البلد فيها قانون .

علق الساكن الكبير الوقور باقتضاب فى يأس واضح :

- كان غيرك أشطر.

أردف أحد أبناء صاحب البيت :

- إذا كان معاك ورقة واحدة تقول إنك ساكن هنا أصلاً روح اشتكى.

أغلق المعلم باب الكلام قائلاً فى حسم :

- قصره، مالكش عندى غير أوضتين وطرقة وحمام ومطبخ، وأعلى ما فى خيلك اركبه.

كانت عبارته الأخيرة، (أعلى ما فى خيلك اركبه) أشبه بكلمة السر؛ فعلى إثرها انصرف السكان، كل فى حال سبيله، يفكرون فى كيفية تدبير العشاء لعيالهم.

قـالت زوجتى مـهونـة علىَّ الأمر، والدمـوع تكاد تطفر من عينيها:

- باب الشـقـة يلزمنا فى إيه يا مـحـمـد ؟ ندخل التليفزيون والكرسين أوضة النوم، وبلاش حرقة دم.

فأخـذتها فى صـدرى، دخلت الشقـة، وأنا أحبس دمـوعى خجـلاً، نادمـاً على نواياى الطيـبة وحـسـن ظنى بالناس فـى هذا الزمن، وظلت ليـالىَّ يسـودها الشعور بالقهر، يسيطر عليها السهد.

***

شـهـدت وزوجـتى مـولد الربيع فـى قـريتى، تلك الوادعـة هناك؛ فى حـضن النهـر، وعدت لأجـد بابى الحـجرتين مـخلوعين، لا وجود لهـما بالمرة، أسـرعت أطمئـن على منقولات زوجـتى فوجـدتها كـما هى، استنتجت دون عناء أن الذى خلعهما صاحب البيت - وله فى ذلك سابقة - نزلت قـفزاً وزوجتى خلفى، أخـذت أدق باب شـقـتـه بكلتـا يدى صـارخـاً بأعلى صوتى :

- البابين يا حرامى. يا ظالم. يا مفترى.

فُتحَ الباب بعنف. مرة واحدة. خرج منه أكبر أولاده. شاب قوى. فى ضعف حجمى تقريباً. نشّب أظافره فى زمارة رقبتى فأصبت بالخرس. كادت تطلع روحى.. فى إثره خرج صاحب البيت بنفسه. لطش ولده كفاً فتهدل شاربه وارتخت أعصابه. دفعه داخل شقته :

- الأفندى كان حيموت فى يدك يا ابن الفرطوس. وتروح فى حديد.

أغلق الباب عليه .. ثم أخذنى فى صدره العريض. ربت على ظهرى. وراح يمسح الدم. الذى نزّ على رقبتى بذيل جلبابه الفضفاض. بينما زوجتى قد هدأت إلى حد ما. واستردت وعيها بعد نوبة صراخ هستيرى. أسلمتها إلى غيبوبة خفيفة.. كالعادة تجمع سكان شقق البيت. قال صاحب البيت - أمام الجميع - فى هدوء شديد وببرود أشد :

- أستحلفك بالله يا أفندى. فيه حاجة راحت منك ؟

- لأ. بس بابين الأوضتين اتشالوا !

- أمرك غريب بصحيح !. أمال عامل قلق ليه ؟!

- بقولك بابين أوضتين شقتى اتشالوا !

- البابين احتجتهم فى بيتى الجديد. خدتهم. وللبيت بوابه حديد تصد جيش.

زام سكان الشقق الأخرى زومة مكتومة. لكنهم سرعان ما قالوا فى خنوع :

- عداك العيب يا معلم. بيتك أنت حر فيه. وكل واحد معاه نسخة من مفتاح البوابة. اتسعت حدقتاى بشدة. وانفتح فمى على آخره. ركزت نظراتى الحادة فى عيونهم الزجاجية :

- يا جبناء. يا منافقين. يا كلاب.

أخذوا ينصرفون الواحد تلو الآخر .. التقطت أذناى همساتهم الخائفة :

"كان فين سبع البرمبة لما اتخلعت ببانا ؟!". "يا عم وأحنا مالنا". "هو خايف على أيه بسلامته" "والله المعلم أمير وطيب". "ممكن يطرده ويريحنا".

"حد فينا معاه اللى يثبت إنه ساكن أصلاً". "كل الشقق إيجاراتها بأسامى ولاده". "بالصلا عا النبى كلنا ساكنين م الباطن". "قول يا باسط أهى سكنى والسلام".

أخذت زوجتى تحت إبطى، أصعد إلى شقتى متجاهداً حتى وصلت فارتميت على أول كرسى قابلنى. ألقيت على شقتى نظرة فرأيت كل الأشياء حزينة كابية. وضعت رأسى المصدع بين راحتى صامتاً، بينما أخذت زوجتى تسقسق الخدوش والتسلخات فى رقبتى بالمطهر، وتلح فى الوقت نفسه أن أتناول كوب الليمون حتى أهدأ. قالت تواسينى - فيما يشبه الدعابة- :

- محمد. طبعاً مايهمناش فى الأوضتين غير المجوهرات وسبائك الدهب، وأهى فى الخزنة الحديد.
فرفت على شفتى ظلال ابتسامة شاحبة، بعدها بلحظة طالت قليلاً صلبت طولى. بدلت ملابسى، فردت جسدى على السرير فى حجرة بلا باب. لم

يغـمض لى جفـن حتى مطلع الفـجـر. ولم تواتنى الرغبة الجنسـية لفترة طالت أكـثر مما ينبغى. رغم إغراءات زوجتى. التى تحرك الحجر.

***

كـانت فـرصـة أن تعلن شـركـتى عن مـصـايف لموظفـيهـا وعمـالها بنـظام التقـسيط فـحجـزت حجـرة فى أحد المصـايف. لعل وعســى أن أخرج من جو البـيت الخانق.. أمضيت وزوجـتى أسبوعاً جـميلاً ممتعاً. وقد واتتـنى الرغبة الجنسية عنيفـة صاخبة. فى المصيف جو آخر. إيقاع جـميل. مختلف فى كل شىء .. عـدت خـفـيفـاً كـريشـة. كـأنى تركت مـا يثقلنى هناك. فى المتـوسط. ما أغرب تأثيـر الأماكن على نفسية البشر !.. حينما دلفت وزوجتى شقتنا مثل عـصفورين يتقـافزان فى خفة ورشاقـة. رفعت رأسى فـرأيت أغـــرب مـا رأيت فى حيــاتى؛ سـقف الشــقة (مـتشـال) كله. لم تبق إلا أسـياخ الحـديد الصـدئة. توحى بجو سـجن قـابض للنفس والروح.

وقــد تناثرت الأتربة. وبقــايا الردش هنــا وهناك. فى البــداية جـمد لـسانى. تخـشب فـى تجـويف فـمى. وثبت على وضع لا يبـرحـه. جف ريقى تمامـاً. بينمـا أخذت زوجتى كعادتها تصرخ وتصـرخ. واستغرقتها نوبة صـراخ هسـتيـرى حـتى جـاء السكان .. لحظة وصعد صـاحب البيت وأولاده. أنحى الكل. تقدم فى هدوء وثقة قال - أمام الجميع :

- يا أفندى اسـمـعنى كويس. وقــدر أنت .. مهندز قـريبى. كبـير قــوى يعرف مـصلحـتى صح. أقنعنى بالورقـــة والقلم إن الدور الخــامس حـمـل زايد على الأســاسـات. لابد من إزالـة سـقـفـه على الأقل. وإلا حايقع البيت فوق دمغاتنا. أنا عملت الصالح.

قالت زوجتى. وقد خنقها البكاء :

- والمهندز الكبـيـر قــوى ده. كـان فين لما بنيت يا معلم الشوم؟!

- أنت حـرة. عـجـبك يا بت الناس تـسكنى على كده خليكى.

- لأ. مش عجبني يا مفتري. هات فلوسنا يا نصاب. يا حرامي.

رد أحد أولاده بصوت ساخر ممطوط :

- في المشمش يا حلوه.

علق أحد السكان مستظرفاً :

- يا جماعة عادي جداً: العالم كله بيعيش عصر السموات المفتوحة.

حاولت جاهداً أن أبصق في وجهه. فلم تسعفني البصقة: فريقي مازال جافاً. دفعت الجميع بكلتا يدي في صمت غاضب حتى أخرجتهم جميعاً.. رحت وزوجتي ننظف الشقة حتى هدنا التعب والإحباط فنمت وزوجتي كيفما اتفق.. لكنني شعرت - وأنا بين النوم واليقظة - بدبيب كدبيب الخنازير. وأنفاس تفح كفحيح الافاعي. فتحت عيني. رحت أفتحهما وأغلقهما - أكثر من مرة - حتى أتأكد أن ما أراه حقيقة.. واقعاً. ليس حلماً أو كابوساً فرأيت بعيني رأسي أولاد صاحب

البيت يعبثون تحت قميص زوجتى بصلف واستمتاع.. راحوا يعبثون. ويعبثون بأصابعهم الخرافية القذرة حتى خلت أنهم يعبثون تحت ثيابنا. تحت جلودنا. فى شرابنا. فى طعامنا. فرحت أصرخ وأصرخ عسى أن يفيق السكان من سباتهم.

زائـــر النهـــار

بدأت الطَّرقات خفيفة هادئة .. ثم تعالت وتوترت. أسرعت وسحبت الرفاس بيد مضطربة، بينما كانت يدى الأخرى مشغولة بتزرير آخر زرار فى جاكت البيجامة. تلاقت النظرات المتسائلة برهة فرسم على شفتيه ظل ابتسامة غامضة. وسرعان ما دلف إلى الداخل. فى أثناء اندفاعه اصطدمت كتفه بكتفى. كاد يوقعنى لولا أننى تفاديت ذلك بصعوبة فى آخر لحظة. "زرق" إلى الصالة. راح يحث خطواته وينثر نظرات مستطلعة على الأثاث والجدران. وبلا كلمة واحدة سبقنى إلى حجرة الصالون. وكأن قدميه تعرفان طريقهما جيداً.

كان طويلاً إلى حد ما. ذا كرش مترهل. يرتدى بدلة كاملة. يضع فى جيب جاكتته منديلاً نظيفاً. وينتعل حذاء إنجليزياً أنيقاً. بيده حقيبة سامسونايت جميلة.

فى حجرة الصالون. على الكرسى المواجه لحجرة النوم جلس. حط ساقاً على ساق. أراح مؤخرة رأسه على مسند الكرسى وتنهد. أغمض عينيه إغماضة سريعة كمن يتذكر شيئاً. فتحهما. وزفر زفرة طويلة. قال مبتسماً وبأداء مسرحى:

- هل تصدق ؟! بعد هذا العمر كدت أتوه فى مدينتكم.

- معقول ! عنواننا واضح معروف.

قرقرت ضحكته. نظر لى فى استغراب :

- هذه مدينة يتوه فيها الجن !

رسمت على شفتى ابتسامة مجاملة. باهتة. وقلت :

- آسفون لتعبك. أهلاً بك. أهلاً وسهلاً.

لم يرد أو يعلق. وجه نظراته ناحية أخرى. وراح يدس فى جيب جاكتته ورقة صغيرة مطوية بعناية. عيناه تجوبان زوايا المكان فى قلق امتزج بحب استطلاع خجول. ثم ابتسم ابتسامة عريضة

غطت ملامح وجهه المستدير، وسرعان ما قال فى نبرة ودود :

- اعذرونى، مشاغلى كثيرة والدنيا تلاه .

فتحت فمى؛ أردت أن استفسر، لكنه عاجلنى :

- دعنا من هذا الآن، أين المدام والحاجة والعفاريت الصغار ؟!

- هناك، موجودون، أقصد هنا.

رفع ذراعيه قليلاً، صفق صقفتين أو ثلاثاً، وراح صوته يرتفع واضحاً :

- يا مدام، يا حاجة، يا أولاد.

لم يرد أو يأت أحد؛ يبدو أنهم كانوا مندمجين فى الحديث عن القضية، التى رفعها صاحب البيت ضدى، التى جعلت المناقشات والحزن يملآن النفوس والمكان واللحظات.

بسرعة خاطفة راح يحكى عن الرجل العجوز، الذى تشاجر وسائق الميكروباس، ويصف بجمل سريعة لاهثة ما حدث بالتفصيل، دون أن يدع لى

فرصة واحدة لمشاركته الحديث أو التعليق على ما حدث.. ثم أنهى كلامه بنكتة سخيفة معروفة، لكنى ضحكت مجاملاً فمد كفه ودق على كفى بقوة، وغرق فى الضحك حتى لمعت عيناه العسليتان. وقبل أن أفتح فمى قال بطريقته السريعة :

- لا تزال أنت أنت. لم يحدث تغير يذكر: الذقن المدبب، الشارب الحليق كالعادة، الشعر الأسود الناعم، المهوش، التجاعيد الخفية... لم أدعه يسترسل فى سرد سمات أخرى. أعرف جيداً أنها لا تنطبق على تماماً. فقلت فى حدة :

- معقول ؟! لا تستخف بى يا رجل إلى هذه الدرجة.

- صدقنى، أنا لا أجامل.

- يا رجل الأيام تغير العفريت.

- لكنك لا تزال شاباً رغم أنك تعديت الخامسة والأربعين. أنا أحسدك. لقد فعلت بى السمنة

الأفاعيل كما ترى.

أتت والدتى تتجاهد. دخلت وبين يديها صينية نظيفة، فوقها واجب الضيافة. نهض مسرعاً، خطا بضع خطوات، تناول من الحاجة الصينية، وضعها على الترابيزة قدامه، مد يمينه، وصافح والدتى بحرارة حتى خيل لى أنه يعرفها عز المعرفة .. ثم راح بطريقته السريعة نفسها يثنى على طيبتها وعراقة أصلها، ويتحسر على هذا الزمن الذى ندرت فيه الطيبة، وتاهت الأصول. وابتسامات والدتى الخجول تتسع وتتماوج، وتعقب على كل جملة من جمله اللاهثة بجملة واحدة، لا تتغير : "الله يخليك يا بنى".

ولما كنت بطبيعتى أمقت هذه المجاملات الفارغة، رفعت صوتى مقاطعاً فى حدة أخرجتنى عن سمت شخصيتى الوقور :

- ممكن أعرف الأستا .....

قطع الجملة على لسانى قائلاً بسرعة بارقه فى

شبه اعتذار :

- الأستاذ أخو المدام، والله عارف ظروفه. كلمت طوب الأرض بخصوص موضوع شغله، وقريباً. قريباً جداً سيتسلم وظيفته .

تبادلت ووالدتى بضع نظرات متسائلة بسرعة خاطفة. فانتهز الفرصة، ومد رأسه من خلف ظهرها، وأشار إشارات باسمة إلى طفلتنا الكبرى، التى كانت تنظر إليه فى توجس وحيرة. لكنها تحت تأثير إشاراته وإلحاح ابتساماته المشجعة أتت إليه .. ارتمت بين ذراعيه مستسلمة كقطة وديعة. بحركة ميكانيكية فتح حقيبته السامسونايت. أعطاها باكو شيكولاته من الحجم الكبير الفاخر وعروساً بلاستيكية. عندما يضغط على الزنبرك تبصبص عيناها وتتراقص، وتقول : "بابا وماما" ضم البنت إلى صدره، راح يداعبها مداعبات لطيفة، ويربت على ظهرها بحنان أبوى دافق :

- الأمورة فى سنة كام ؟

- أولى ابتدائى.

- جميل، جميل، وشاطرة فى المدرسة ؟

- ساطلة وبتطلح من الحسلة الأوائل على المدلسة كل سنة .

- طبعاً، ابن الوز عوام.

- هو انت قريب بابا يا أونكل ؟

- طبعاً طبعاً، يا روح أونكل، كل الناس قرايب.

دقائق قلائل، وجاءت طفلتنا الوسطى تستطلع فى خبث باسم، نهض قبل أن تصلنا، سحبها من يدها برفق وحب، وببسماته العذبة الساحرة، ومداعباته المبتكرة المشجعة حطم الحواجز فى ثوان، وسرعان ما راحت البنت تتقافز على فخذيه الكبيرين، وتلوح لى بباكو شيكولاته كبير محاولة إغاظتى :

- أنا معاى سيكولاته، أنا معاى سيكولاته.

قلت وأنا أركز نظراتى عليه فى غيظ امتزج بالإعجاب به فى آن :

- قولى شكرا لأونكل.

- سكلاً خالص يا أونكل.

وأنا أقرأ ملامح وجهه، وأراقب لفتاته، محاذراً أن يلحظ ذلك.. نابشاً - فى الوقت نفسه - بين تلافيف ذاكرتى عن أية صلة تربطنى به، رأيت يدين صغيرتين، تشدان أذنى الضيف فى شقاوة، تمتمت - فى سرى - : "يا خبر أسود، الولد الأصغر أشقى خلق الله شرّف دون أن أشعر، وسيجعل رقبتى مثل السمسمة". بالفعل راح الولد العفريت يشاكس الرجل، ويقلب جيوبه، يجذبه من كرافتته فى جرأة غريبة، لم يتركه إلا بعد أن فتح حقيبته وأعطاه قرداً معدنيا، يدور بالحجارة وباكو شيكولاته كبير من النوع الفاخر، حينما شخطت فى الولد، وأنبت البنتين غطت وجهه مسحة حزن، أسرع قائلاً، وهو يزم بين حاجبيه :

- يا رجل لا تكن فظا هكذا ! ماذا حدث ؟! هكذا هم، الأطفال أحباب الله.

راح يعطينى فى حماس وجدية درساً فى كيفية معاملة الأطفال. وسرعان ما تطرق إلى الصفات الواجب توافرها فى معلمة الأطفال. أثارنى بأسرار علم نفس الطفل ومهنة التدريس. لم يكن لى علم بها. بهرنى بحديثه الحنون الممتع وتشعب معارفه حتى التقطتُ قلماً. وسجلت بضع ملاحظات على هامش الجريدة التى كانت موضوعة فوق الترابيزة أمامى كيلا ينكشف جهلى - فيما بعد - قدام أولادى.

تركنى الرجل والجريدة والقلم والملاحظات والأكواب الفارغة والذهن الشارد. انشغل تماماً بالأولاد. وانشغلوا به. اندمج معهم .. راح يلاعبهم ويلاعبونه. تمددت الضوضاء فملأت حجرة الصالون والصالة والحجرة الأخرى والمطبخ حتى دورة المياه. بل سمع الجيران قرقرات ضحكاتهم. وهو يقلد لهم فى إتقان فطوطة وبقلظ وجدو عبده ...

انتهزت الفرصة. وانسللت بلا استئذان ..

أمسكت زوجتى فى غلظة، ضغطت على لحم كتفيها العاريين، وقلت وأنا فى شبه جنون :

- من هذا الرجل ؟! أين عرفت هذا الكلح يا مدام ؟!

- أنت جننت ! لابد أنك جننت بالفعل ؟! هذا الرجل لا أعرفه، ولا عمرى شفته.

ارتخت ذراعاى، اكتنفنى خجل بارد، حدقت فى عينيها النجلاوين فأخرستنى براءتهما، أخرجت كما هائلاً من الزفير، وانحنيت قليلاً، قبلتها فى جبينها، قلت فى شبه رجاء، وأنا العالم بالأحوال :

- نحن فى ميعاد غداء جهزى لقمة، الواجب واجب.

ردت، وهى مازالت مقطبة الجبين :

- حاضر .

تركتها فى المطبخ، ودخلت عليه، يبدو أنه لم يشعر بانصرافى أو مجيئى؛ فقد كان الرجل لا يزال يتحرك هنا وهناك، يتخفى وراء كراسى الصالون

يشـــاكس الأولاد ويشـــاكســـونه. ها هـو ذا نسى سنوات عـمره التى تجاوزت الأربعين - فيـما يبـدو - صار طفلاً مثلهم. بل أكثـر مرحاً وشقاوة.. جلست بينهم شـــارداً واجـمـاً كلون قـاتم فى لـوحـة تضج بالألوان المبـــهـــجـة. وقـــد تكاثفـت وتداخلت آلاف الخـواطر والصـور داخل تـلافـيف رأسى. كـيف صـار رأسى الصغيـر عالماً كبيراً. يزدحم بالمقـاعد والجدران والأمـاكن والـرءوس والملامح والشـخـوص والجـبـاه والسنين والمعـالم والمدن والناس. وأى شـىء يذكـرنى بهذا الذى يتحرك براحتـه فـى بيتى. وكأنه فى بيته. هذا الذى قلب الشقـة سيركـا. والله العظيم ثلاثاً هذا الرجل ليس بـلدياتى. ولم يكن يومـاً من زمـلاء الدراسة. ليس من الجيـران. وليس بصديق؛ فأنا رجل مـحدود العـلاقـات نظراً لظروفى المادية الصـعبـة. أعـيش حيـاتى على الصـراط. والواحد الذى يعـيش مثـ...

- "الواحد واقف مـظبوط. والاتنين بتبـص عليه.

والتلاته بسنتين، والأربعة اتنين واتنين، والخمسة كحكة مدورة ...".

يردد الأولاد الكلمات خلفه بسرور دافق وحماس زائد. لا أستطيع الوقوف أمامه. قلت - بينى وبين نفسى - وأنا أحاول إخفاء غيظى وإعجابى فى آن، وقد تراقصت على شفتى ظلال ابتسامة عريضة :

- فتحناها حضانة والحمد لله.

سرعان ما راح ذهنى يعود مرة أخرى يستعرض وجوه المئات من رفاق الصبا والشباب وفترة التجنيد. والمئات من موظفى المصلحة والمعارف فلا أعثر على أية علاقة تربطنى بهذا الرجل، الذى استولى على مشاعر أولادى بكل هذا الإصرار والجمال. وأمى ځاو ...

- ... أنت كبيرة، وأنا صغير، والصغير بكره حيكبر ...

وأطفالى يرددون خلفه صاخبين على ضربات كفيه الكبيرتين كأحسن ما يكون الإيقاع.

فى هذا الجو الذى امتزج فيه الصخب والمرح والدهشة طقت فى رأسى فكرة سوداء: لابد إذن أن هذا الرجل من رجال أمن الدولة. ولكن ما لى أنا ورجال أمن الدولة ؟!.. فأنا والله مواطن صالح شريف؛ نظيف اليد والدرج واللسان رغم أننى فقير عدمان. أؤدى واجباتى بالتمام والكمال. لا أتدخل فيما لا يعنينى حتى لا يحدث ما لا يرضينى. لا أصادق أحدا من السلطات العليا أو السفلى. لا أفهم فى أمور السياسة أو برامج الأحزاب.. منذ تزوجت - والجيران يشهدون على ذلك - أحيط نفسى وأسرتى بأسوار العزلة إلا فى أضيق الحدود. لا تعامل أسرتى الصغيرة - إلا للضرورة - إلا أولئك الذين يتحتم أن يفتح لهم الباب كالبواب والزبال واللبان وبائع الخبز ومحصل استهلاك الكهرباء. لم أذهب يوما إلى ندوة مهما كان موضوعها أو نوعية ناسها.. ولما تأكد لى تماما أنه لا شبهة هناك. وأن ما تصورته أوهاما فى أوهام تنهدت مستريحا.

واستسخفت ذلك الاحتمال، الذى لم ...

- "قطتى صغيره، واسمها نميره، شعرها جميل، ذيلها طويل، تظهر المهاره وهى تصيد فاره ...

والعفاريت الصغار يرددون وراءه بصوت عال ضاحكين صاخبين، مستخدمين أكفهم وأقدامهم ورءوسهم فى ضبط الإيقاع، وأنا أحاول انتشال نفسى من هذا الصخب المعاند، أركز باحثا - بقدر المستطاع - عن خيط - ولو واهن - يربطنى وهذا الزائر المفاجئ فيقفز إلى ذهنى احتمال من الممكن أن يكون هذا الزائر لصاً محترفا ذا تاريخ ضالع فى الإجرام، جاء كى يدرس خطة السرقة والطريقة المثلى للدخول والخروج فأصابنى رعب وانزعاج، ولكن سرعان ما تنبهت إلى حقيقة مرة، فرضت وجودها فى الحال؛ إن ما يوجد بشقتى لا يستأهل من اللص كل هذا العناء، فالمعروف أن اللصوص اللصوص لا يسرقون إلا ما خف حمله وغلا ثمنه، وهاتان صفتان لا تنطبقان على ما نملكه، والحمد والشكر لله على

كل حال، ومن ثم استبعدت هذا الاحتمال، واتضح لى مدى ما ينطوى عليه من سخف، وظن سيئ بالناس الشرفاء الأخيار وإن بعض الظن إثـ ...

- "الله ربى، وفى علاه، أدعوه ربى، أرجو رضاه..."

والأولاد يرددون خلفه الكلمات كالببغاوات، وقد كست وجوههم البريئة مسحة جد ووقار، تغرى من يراهم بالابتسام.

أفقت من شرودى على انفتاح باب الصالون، وزوجتى تدخل حاملة صينية الطعام، أشرت بيمينى :

- ادخلى يا أم نهال.

ثم وجهت إليه الكلام :

- أم نهال زوجتى.

نظرها فاعتدل فى جلسته وصمت، تأملها، تأملته.. نهض مسرعاً مرتبكا اتسعت حدقتاه، كست الدهشة ملامحه، كل ملامحه بلا استثناء ارتخت شفته السفلى، ابتسم ابتسامه بلهاء، قال

متلعثما، وهو يوسع خطواته فى اتجاه الباب :

- لا تؤاخذونى، آسف، آسف جدا، اعذرونى.

وبحركة خاطفة سحب رفاس الباب، لوح بكلتا يديه وهو يهبط درج السلم مسرعا، وقد احتوت الدهشة الجميع، بينما كانت دمعات بلورية تتحدر على خدود الأولاد.

لحـــن لم يكتمـــل

أقـبل على الكازينـو فـى خطوات هادئة واثقـة، تضىء وجهـه ابتسـامة رضـا، يصدر صفـيراً فـرحاً ناعماً منغـوماً، شاب فـى كامل فتـوته، يبلغ حوالى الثلاثين من عـمره، يرتدى قمـيصاً مشـجراً وبنطالاً من الچينز المحذق، تتأرجح فـى حزامه ميدالية فضية مقـوسة، تضم عـدداً قليلاً مـن مفاتيـح مختلـفة الأشكال والأحـجـام، فـى يمـينه وردة حـمـراء نضـرة، محـفوظة داخل قـرطاس سلوفان، يقـرب الوردة من أنفـه؛ يستنشق عـبيـرها فـى تلذذ، ويعاود صـفيـره الفـرح المنغـوم، وهو يواصل خطواته الموقـعـة على أسفلت الممشى، حـاولت - جاهداً - أن أحدد اللحن أو نوعيـته فأخـفقت، مر بـجوارى كنسـمـة صيف.. سـحب كرسـياً من الكراسـى المنتظرة وجلس، أخرج علبـة سجـائره وولاعتـه، وضعـهمـا على الترابيـزه

بجـانب الوردة. بعـد أن فـض عنهـا غلاف السلوفـان.
أخـرج سـيجـارة. أشـعلهـا. أخـد نفسين لا أكـثـر.
وسرعان ما رأيته يطفئها. ويضعها في المطفأة. راح
ينقر بأطراف أصابعه على الترابيزه. محاولاً أن يوفق
بين نقـرات الأصابـع والصفيـر الذي يصدره. حـاول..
وحاول حتى نجح أخيراً في التوفيق بينهـما. وضبط
الإيقاع إلى حـد كبير. اتسقت النقـرات والصفـير.
وتخلّـق لحن جـمـيل مـبـهـج. يجـذب كل ذي أذن
موسيقية مرهفة: حتى الجرسون حينما اقترب منه
وقف صـامتـاً. يرهف أذنيـه إلى اللحن بشـغف. راح
يطوّح رأسـه يمنة ويسـرة. ويدندن بمطلع أغنيـة
اللحن.. عندمـا خفت الإيقاع قليـلاً تنهد الجـرسون
قائلاً : "والله زمـان يا ست. هو ده الطرب" نظر إليه
في إعجاب. وبصوت دافئ ودود :

– طلبات البرنس. أنا رهن الإشارة يا فنان.

– بعدين. بعدين يا مصطفى.

رحت أصيخ السمع إلى اللحن في استـمتـاع..

يضاعف هذا الاستمتاع خلو الكازينو من الرواد تقريباً فى ذلك المساء. مندهشا - فى الوقت ذاته - من قدرة هذا الشاب على العزف المتميز. وجمال التساوق بين الصفير ونقرات الأصابع على الترابيزه .. لحن عفوى له جماله الخاص؛ فيه روح الفطرة وكاريكاتورية التقليد.. هو اللحن الأصلى. وليس هو فى الوقت نفسه.

***

شلت بعينى فلمحتها عند مدخل الكازينو مقبلة. تتبختر فى مشيتها. تقترب فى خيلاء. متوسطة الخصر والقامة. شابة مثل تفاحة أمريكانى ناضجة. ترتدى قميص فوشيه. وبنطالاً من الجينز المجرب الكالح فوق الفخذين والركبتين. ومشرشر عند القدمين. تنتعل صندلاً ذا سيور سوداء. تبرز بياض جسدها ونعومته. تتجاوز تقريباً السادسة والعشرين. عندما وصلت الشاب. ووقعت عيناه عليها ورآها مقطبة الجبين قطع اللحن

فجـأة. وابتسـم مجامـلاً - ابتسـامة بلون الـفرح- نهض مـسرعـاً. سـحب لهـا كرسـيـاً. وظل واقفـاً خلفها كـچنتل مان حتى جلست .. حينمـا استدار ليجـلس فى مواجهـتهـا مدت يدها وسلمت عـليه بأطراف أصـابعـهـا فى فتـور. وهى لا تزال مـقطبـة عابـسة. رسم على شـفتيـه ظل ابتـسامة باهـتة منكسـرة. وعبس هـو الآخر.. أشـار إلى الجرسـون - وهو فى مكانه - فـفـهم عـلى الفـور .. وفى لحظة رأيت أمامه كوباً من اليانسـون. وأمامها فنجاناً من القهوة.

بدأ الحديث بينهمـا هادئا خفيفاً. وهو يقدم لها الوردة الحمراء النضرة فأنحتها جانباً. أهملتها تماما. وهى تسـتمع إليـه فى اشـمئناط.. راح يسـتخـدم يديه مـلامح وجهه فـى توضيح أو تفـسير مـا يريد توصـيله إليـها. فـمـا تزداد مـلامحـهـا إلا عـبوسـا واشـمـئناطاً. وتكسـو وجـهـهـا سـحـائب غـضب منذرة.. الحق أقول كنـت فى حيرة: فـلا أعرف فى أية

مســألة يتحادثان. أو فى أيه قضـية يختلفان: فـقد كانا يتحادثان فى هدوء وبصوت خفيض كما قلت ..

تحت تأثيـر إعـجـابى بالشـاب ورغـبـتى القـوية فى إكـمال لحنه الجـمـيل. كـدت أهم بالذهاب إليـهمـا لأقف بجانـب هذا الشاب الفنان. أعـضد رأيه. أهدئ الموقف. فأتذكـر مبدئى: وجوب احـترام خصوصـيات الآخـرين. فأحـجم. أمكث جالـسا كـاظما غـيظى. لاعنا عجزى.

دقائق قـلائل واحتدم الموقف: راح صوتهـما يرتفع شيئا فشيئا. وتتضح نبراتهما. فصدمت أذنى بضع كـلمات قاسية حادة :

- ... ومنظرى قدام أهلى وجيرانى ؟!

- أهلـى، أهلى. يـا ســتـى ملعـــون أبو أهـلك وجيرانك.

- أنت منحط. سافل. سافل.

- أنت أسفل خلق الله. متخلفة.

- طول عمرك رومانسى خايب فاشل.

– أنتِ غبية، بليدة العقل والإحساس.

– مش عايزة أشوفك، بكرهك، بكرهك، تفو.

وسرعان ما فزت قائمة، توسع خطواتها نحو باب الكازينو.. بينما راح الشاب يمسح رزاز البصقة الذى تناثر على وجهه، مدهوشا، يتلفت حوله فى خجل وانكسار، نقد الجرسون ثمن المشروبين بسرعة، ومضى فى خطوات ذابلة نحو الخارج مطأطأ الرأس.

رجل .. امرأة

فى المترو كنت مشغولاً - بينى وبين نفسى - بحساب قيمة راتبى وراتب زوجتى بعد إضافة نسبة العشرة فى المائة والعلاوة الدورية. واستغراقى الحائر فى توزيع الزيادة المقررة على بنود الصرف العديدة. جلست - على غير توقع - فى مواجهتى تماماً امرأة. يميل جسمها إلى الامتلاء قليلاً. وإن كانت عيناها منطفئتين. حالتها المادية والصحية عموماً جيدة: يبدو هذا من ملابسها. تورد خديها. نضارة بشرتها. ومدى اعتدادها بنفسها.

حينما رأيتها تشككت بداية. لكن لما دققت طفت ملامحها شيئا فشيئا على سطح ذاكرتى. تطوى فى طرفة عين أكثر من ثلاثين سنة. كدت أصيح : يااه .. لوزة بنت عم جمعة بواب السكن

القديم - لم أستطع لحظتها تذكر اسمها الحقيقى - صحيح مسير الحى يتلاقى .. لكننى صمتُّ لسبب غمض على.

لعبت ولوزة طفلين ألعابا كثيرة. كثيرا ما اشتبكت معها بلا أسباب تقريباً .. أضربها. أشدها من ضفيرتها تسقط على الأرض. أضغط بقدمى بطنها. تصرخ. تظل تصرخ وتبكى. ولا تكف عن الصراخ أو البكاء حتى يسرع إليها أخوها حامد أبو رأسين. الذى يكبرنى بسنتين. يدفعنى عنها. ويروح يركلنى بقدمه الكبيرة فى مؤخرتى وساقى وركبتى حتى أقع على الأرض .. أصرخ وأبكى بحرقة. رافعاً صوتى المسرسع المضحك فيضحك ويتركنى :

- إياك تضربها تانى يا ابن الكلب. يا وزة.

(وزة) كان هذا هو الاسم أو الصفة. التى ألصقت بى. واشتهرت بها بين ناس شارعنا والشوارع المجاورة فى سكننا القديم. الحقيقة لم تأت هذه الصفة من فراغ: فقد كنت طويلاً نحيفاً ذا

رقبة مستطيلة. إذا تحركت أو مشيت تتأرجح هذه الرقبة اللعينة - رغماً عنى - إلى الأمام وإلى الخلف مثل بندول ساعة حائط. فيمشى خلفى العيال يصفقون صاخبين : "وزة، وزة، وزة..." أحاول إسكاتهم أو تفريقهم بشتى الطرق. وأنا فى غاية الخجل والضيق من حركة رقبتى البندولية فما يزدادون إلا تصفيقاً وصخباً وعناداً. فكنت - أحياناً - أشاركهم التصفيق و الصخب والعناد وأردد معهم فى نفس واحد : "وزة، وزة، وزة...".

حينما ذهبت ولوزة - بصحبة أمها - إلى المدرسة الابتدائية لأول مرة. التصقت بى. تشبثت بذراعى. كادت تدخل فى حضنى. لحظتها فردت صدرى. شعرت أننى أرجل واحد فى الشارع والمدرسة والحى كله. ولن يستطيع أحد أن ينادينى بـ (وزة) بعد ذلك.

بعد طابور الصباح. فى الفصل جلست بجوارى على نفس الدكة.. ثم راحت - فجأة - تبكى وحدها

بلا مقدمات. وسرعان ما استشرت عدوى البكاء بين تلاميذ الفصل. تمرُّ الأبلة بين صفوف الدكك بملامح محايدة فى البداية. ثم ترسم على شفتيها ابتسامة حلوة. وتروح تربت على كتف هذا. وعلى خد هذه بحنان. ملست على شعر لوزة. حاولت تسويته. وبصت فى وجهى دون أن تفارقها ابتسامتها؛ تجرأت فأخرجت منديلاً. وبحنان طفولى مسحت دموع لوزة. ربت على كتفها برقة فهدأت تماما. وبهدوئها ساد جو الهدوء. صمتت الأبلة دقائق راحت خلالها توزع ابتساماتها علينا جميعاً.. ثم أخذت ترسم بصباع الطباشير أشكالاً غريبة. وبمنتهى الجدَة والحسم قالت : قولوا معاى "ألف. باء. تاء. ثاء ...".

فى مرحلة المراهقة أحببت لوزة. وتوهمت أنها تذوب فىَّ حبا. بعد إلحاحات ومطاردات غرامية مضحكة من جانبى. اعتقدت - حينها - أننى لن أستطيع الحياة بدونها. كان البعض يحسدنى على

حبها. أما البعض الآخر فكان يوبخنى - أحياناً - قائلاً : "بنت البواب ! بنت البواب يا عفش" فأصمت مغتاظا عاجزا عن أى رد.

ذات يوم، وفى لحظة طيش مجنونة احتضنت لوزة، ورحت أقبلها فى نهم على البسطة بين الثالث والرابع. لم أدر كيف انشقت الأرض فى تلك اللحظة بالذات عن عم جمعة. فى لمح البصر فررت، وقد سقطت روحى فى قدمى. رغم أن الرجل أخذ ابنته فى يده، وانسحب فى منتهى الهدوء والصمت.

بعد هذا الحادث بأيام فوجئ سكان العمارة بعم جمعة يحمّل أشياءه البسيطة على سيارة نصف نقل قبل آخر الشهر. وفى هدوء ترك العمارة والشارع والحى دون أن يعرف أحد له أى عنوان أو قصد.

***

عندما خلا مقعد فى المترو كان طبيعيا أن تتجه

إليه وجلس. رأت فى مواجهتها تماما رجلاً فى مثل سنها تقريبا. نحيفا ذا رقبة مستطيلة. يغزو الشيب فوديه. ويزحف الصلع على مقدمة رأسه. سارح فى لاشىء. حالته المادية والصحية بين بين ؛ يبدو هذا من ملابسه. الصفرة الخفيفة البادية فى وجنتيه. ومدى الحزن الساكن فى عينيه .. شكت فى البداية. لكنها لما دققت وركزت بدأت تتبلور ملامحه القديمة شيئاً فشيئاً فى ذاكرتها. وإن شاب ذلك بعض شك. ملامح تستعيد معها أكثر من ثلاثين سنة. تسربت من عمرها. بداية كادت تصيح بأعلى صوتها مندهشة : "يااااه. وزة. فؤاد وزة. معقول ؟! ..." صحيح المثل ماكدبش "مسير الحى يتلاقى" لكنها تراجعت فى آخر لحظة. ربما منعها كونها امرأة أو خجلها المتأصل فى شخصيتها منذ الصغر كبنت لرجل أصلاً ريفى.

لعبت و (وزة) طفلة ألعاباً كثيرة. كثيراً ما تشاجر معها. أو خطف عروستها ورماها على طول

ذراعه. كــان أخوها حــامد - يرحــمه الله - يتــدخل. يضــربه. ويهـدده إذا لـزم الأمـر .. تدرجت مـعــه من مــدرج الطفولة إلــى مدرج الصــبــا.. معــه ذهبت - بصحــبة أمها - إلى المــدرسة لأول مرة فى حيــاتها. عــاشت مــعــه لحظة الانــســلاخ من حــضن أمــهــا. جلست مــعــه فى المــدرســة الابتــدائيــة على دكــة واحدة. كــتفهــا فى كتفــه. فخذها فى فــخذه. رأت فــيه - يومــها - حــمــاية لها. تســتــمد منه القــوة والطمأنينة.

هذا الوقور الجــالس أمامى الآن فى منــتهى الأدب. هو الذى فــض بكارة شـــفـــتى على بسطــة سلم السكــن القــديم.. هو الفــتى الفارس أول من داعــبت أنامله الســاحرة نهــدى. ضــمنى إلى صدره القــوى. فكك الملعون مفاصلى المراهقــة يومها. كدت أضيع لولا لطف الله وستره.

انتهزت فــرصة انشــغاله فى حــوار هامس وشاب يجاوره وتأملته. تأملتــه جيدا. تأكدت من كل ملمح

من ملامحه. بعد أن قدرت مدى تأثير الزمن. قالت - فى سرها - "والله هو" تعرفه جيداً. تعرف أباه. تعرف أمه. تعرف أخواته. تعرف أقاربه.

أوشك المترو أن يصل محطته الأخيرة. صارت العربة شبه خالية .. ولابد من أن تأتى اللحظة الحاسمة. لابد من أن تتغلب على خجلها. وتكلمه - هكذا قالت لنفسها - وهى تنظره .. يجرفها إليه حنين قوى. وهذه صدفة ربما لن تتكرر بعد.. بعد تردد شديد استجمعت شجاعتها :

- أستاذ. قصدى حضرتك. على فكرة أنا بشبه عليك.

- نعم ؟!

- مش حضرتك فؤاد ؟ فؤاد سيد ؟ شبرا. وزة.

وهو يلفت وجهه إلى الجهة الأخرى. وينهض مستعدا للنزول رد ببرود شديد :

- لأمش أنا.

اتجه إلى باب العربة. ورقبته المستطيلة تتأرجح

إلى الأمام وإلى الخلف. فعلقت ببرود أشد في صوت ممطوط ساخر :

- لا مؤاخذه. يخلق من الشبه أربعين.

اغتيـــال زهـــرة

إذا ذهبتَ يوما إلى قلب القاهرة فسترى زهرة بين زهور البستان. آخذة فى الذبول. لا تكاد العين تخطؤها رغم كثرة الزهور المختلفة الأحجام والألوان .. زهرة كثيرا ما تطوحها الريح فتنحنى تحتضن جذورها الضاربة فى أعماق الأرض. تتعوذ بها ضد الريح والأيام المعاكسة... ثم تشرئب تتنفس الصعداء. تبوح بأريجها العبق .. تخالط الزهور الأخرى. تتداخل والناس. تأنس بهم فى صدق وعذوبة وحميمية.

أتردد أحياناً على "زهرة البستان". مضيعاً لحظات الزهق فى سخرية مهذبة من زهوره المزيفة .. فى كل مرة تتألق زهرتى. تنفحنى صدقاً خشناً. وتمرداً غامضاً. فتتعرى أشياء كثيرة فى داخلى .. أتقهقر مهزوماً. وألوذ بأحضان زوجتى وأولادى وبيتى.. لكن

سرعان ما يعاودنى الحنين إلى البستان وأريج زهوره. تفتح زهوره وأوراقه. والاستمتاع بأحاديث زهرتى، التى صارت بتتابع الأيام علامة وشارة على ذلك البستان.

***

فى جنح الليل، على سرير الشوك غالبنى النوم .. رأيته يقبل علىَّ باسماً. وأنا أقف على حافة نهر واسع مديد. أتفرج على أناس عراة. يستحمون بالدم. يتضاحكون فى رعب. وآخرين يسرقون فى حجورهم خير ذلك النهر. ويتركونه ملوثاً .. صافحنى بحرارة بكف مبتورة الأصابع. عانقنى بشوق .. ثم انتحب باكياً :

- أنت يا صديقى مطلوب فى الأمن !

ابتسمتُ. ربت فوق ظهره مشفقاً عليه. جفف دموعه بكم قميصه الكالح. وفى لحظة خاطفة قفز فوق كتفى مثل قرد. لكن سرعان ما طرحته على الأرض. نهض متحفزا كفهد.. قال بصوت ذابل:

- أنت حنون. فنان بحق. الوحيد فى الشلة الذى يتمتع بموهبة حقيقية.

- أنت منافق.

- عيبك أنك تفهمنى جيداً.

- وهل صار الفهم عيباً فى زمنكم الأغبر.

- حوارك ساذج. أنصحك أن تقرأ مسرح الحكيم حتى تجيد فن الحوار والعظماء أمثالى.

- ليس بالحوار وحده يتحاور الإنسان.

- أنت جاهل يكابر.

سبحت جيوش من النمل فوق غلاف جسدى. نشع العرق تحت إبطى. وبين أصابع القدمين. كدت أهم بضربه. لكنى كظمت غيظى. وبسرعة قلت :

- أنت حاقد ووغد.

قبل أن أهم بدفعه فى النهر حتى أتخلص منه. بعد أن فشلت فى منافسته فى فن القصّ. نظر لى متسائلاً :

- هل قرأت "القمر بوبا" ؟

- و "العشق أوله القرى".

- أنت قارئ نشط. دودة كتب كما يقال عنك.

- ما أخبار "رمش الصبايا" فى هيئة الكتاب ؟

- لا يزال كتبة إدارة النشر يماطلوننى، ويسوفون الأمر.

- أنت واهم يا إبراهيم: لقد صدرت "السيف .. والوردة". هل قرأتها ؟ هل سمعت ما قاله عنها صلاح فضل فى "البرنامج الثقافى" ؟

- نعم . نعم.

- وما رأيك ؟

- أنت موهوب مؤلم. وإن كنت تشك اسأل صديقك رفقى بدوى.

- هكذا تقيم نبض الشعور ورحيق الفكر ؟!

- إذن : موعدنا الثامنة مساءً فى "زهرة البستان" بعد غد. حتى نتكلم بالتفصيل. وراح يلملم أشياءه من فوق الترابيزه أمامه.

وبحركة ميكانيكية سريعة علّق حقيبته

الرخيصة فى كتفه الأيسر .. وسار يتجاهد، بخطوات زاهدة، تترفق بأديم الأرض. بعد أن استلف منى ثمن تذكرة الأوتوبيس - كما يحدث غالباً - زاعماً أن يتم السداد أول الشهر.

حينما صحوت تاهت بين تلافيف رأسى تفاصيل الحلم، بدت مثل ظلال باهتة، لم تبق إلا ملامحه بأدق تفاصيلها؛ إن محبة زهرتى تبرعمت، تنامت بين شغاف القلب، وقد فاح أريجها يملأ النفس، ويشرح الصدر.

***

حينما لمحنى مقبلاً على "زهرة البستان" سلت مبسم الشيشة من فمه، وابتسم ابتسامة واسعة مثل طفل، جذب مقعداً، نفض عنه ذرات التراب بضربات خفيفة من راحة يده، أجلسنى بجانبه .. نادى على جرجس نادل "زهرة البستان"، طلب لى قهوة وشيشة، وهو يمص الدخان مصاً، قلت متعجباً :

- أنا لا أدخن فلم الغرامة !

- أعرف أنك تدخن أحزانك. عموماً أنت الذى ستحاسب. فصاحبك فقران كالعادة.

قبل أن أعرف رأيه فى "السيف .. والوردة" أو موعد عرض "فى العشق والسفر" - الفيلم الذى أعده. وكتب له الحوار - راحت تتمازج على وجهه الصفرة بالسواد. أخذ يتمتم هامساً : "طائر الموت يحلق الآن فوق رأسى المجهد. آن للقلب المتعب بحلم الزواج من البنت الشمالية البيضاء أن يستريح .. ستغرب شمس الغد فى الجنوب. وستتوشح دور "النوبة" بشال الحزن النبيل. ستنطفئ هناك عيون ناسى. وتطفر - رغماً عنهم - الدموع لفقد ابنهم المعنى الغريب. فلتبعث الآن أرواح الأجداد الأفذاذ.. أين أنت يا محمد يا خليل يا قاسم ؟!. هل واريت "الشمندورة" فى مقابر القدماء. أم لا تزال تسكن تحت السلالم. وفى البدرومات. تعيش تخدم هؤلاء الشماليين الأوغاد ...". قطعت حبل خواطره

متسائلاً :

- أهى قصة جديدة عن "النوبة" يا إبراهيم ؟

- أى نوبة تعنى .. "النوبة" الغارقة عند السد، أم "النوبة" الجديدة المزيفة فى "كوم أمبو". أم النوبة التى تفجؤنى فتقطع أنفاسى بالسعال وتصيبنى بالنزيف ؟

- اخلع عنك حزنك يا إبراهيم، وتكيّف كما يتكيفون حتى تسترد عافيتك، وتعيش.

- هى ليلاى .. فكيف أنساها ؟! أرضعتنى حنانها، وأنا مازلت فى المهد صبياً، غرست فى أعماقى قيمها فوقفت صلباً شامخاً وكوكبة عشاقها المتيمين : محمد خليل قاسم، إدريس على، يحيى مختار، حجاج أدول، حسن نور، و ....

حدقت فى وجهه، وفجأة قاطعته :

- أنت بطل تراجيدى من طراز فريد.

ابتسم، قال حسيراً :

- هات شاياً يا جرجس، وغير الشيشة، فليل

القاهرة على الغرباء طويل طويل. واطمئن فسوف يحاسبك هذا الصديق الكريم.

***

ضربت الصفرة في عينيه الجميلتين. وأخذت ملامح وجهه تتقلص بشكل ملحوظ .. راح وجهه يزداد شحوباً. وبدا عليه الإرهاق الشديد. وهو يمد كلتا يديه يسند بطنه الأخمص فصحت متسائلاً :

– ما لك يا إبراهيم ؟ ما لك ؟

– تعبان قوى. نزيف .. نزيف شديد.. آلام لا تطاق .. ارحمني يا رب .. ارحمني .. حاااموت.

(تمتمت – بيني وبين نفسي – عن اقتناع : إبراهيم فهمي سيموت. ولن يموت).

– استرها يا رب. الحق يا "كفراوى". تعال يا "أصلان" .. إبراهيم فهمي يموت .. الدم طفح من فمه. خذه على صدرك يا "نجم".. استرها يا رب.

بسرعة رص "مستجاب" عدداً من المقاعد. فردنا جسد إبراهيم. وراح نفر يحث الحضور على سرعة

التصرف فى الأمر.

- لا تتعبوا أنفسكم .. أنا حاموت فلا داعى للتعب. اتركونى أموت فى هدوء.

- اسكت. لا تجهد نفسك. الكلام خطر عليك.

دنا منا شيخ عجوز. قاله. وهو يغالب دموعه :

- لا تقنط يا بنى من رحمة الله .. لا تقنط من رحمة الله.

- اتصلوا بنادى أبناء النوبة. بإدريس أو حسن نور.

- استرح أنت. الكلام خطر عليك.

- ادفنونى مع أختى فى مقابر بهتيم. هل تعرفون مكانها ؟

قال صاحب "زهرة البستان". وهو يمسح بكم جلبابه دمعة طفرت لامعة فوق خده :

- شد حيلك يا إبرهيم. وحد الله يا ابن الناس.

- صدقونى .. أنا حاموت. قل لهم يا "وكيل".

فى تلك اللحظة عاد مهرولاً جرجس وهشام قشطة ومحمد كشيك يأسفون لفشلهم فى

العثور على طبيب فى هذا الوقت المتأخر من الليل، صرخ خيرى عبد الجواد وسمير عبد الفتاح فى نفس واحد :

- ينقل فوراً لأى مستشفى، ونتحمل جميعاً مصاريف العلاج. أشار بيده رافضاً. قال فى نبرات متقطعة:

- هنا حاموت .. بينكم .. هنا بدأت، وهنا حانتهى .

وسرعان ما سكت، أسبل "مستجاب" عينيه، ثم قطع لحظة الصمت المباغتة قائلاً بصوت مخمور بالحزن والجنون :

- البقية فى حياتنا جميعاً أيها الموتى.

نظرة .. ورجل

عقارب ساعة الحائط فى مدخل اللوكاندة تقترب من الواحدة فى ليل القاهرة الصائف. مسئول الاستقبال يجلس على كرسيه أمام مكتبه المتواضع. يدخن سيجارته فى تلذذ. ويدندن بأغنية قديمة بصوت خفيض. خلفه تماماً صورة كبيرة الحجم للرئيس. معلقة على الجدار فى إطار ذهبى باهت. على يمينه قائمة أسعار الحجز مكتوبة بخط ردىء. معلقة فى إطار رصاصى لامع. أمامه تليفزيون ١٧ بوصة على ترابيزه متآكلة الحواف. يعرض فيلماً قديماً.. فى مساحة المدخل المحدودة تتناثر كراسى طاقم أسيوطى نصف عمر. على أريكته يجلس عامل الاستقبال ماداً ساقيه على آخرهما. نصف نائم؛ تأخذه سنة ثم ينتبه على صوت أو حركة. يتلفت حوله بلا مناسبة. يتثاءب.

يتـمطى .. ثم يـعـاود إغـفـاءته. أمـا رجل الأمن باللوكاندة فقـد استأذن منصرفاً - على غـير عادته - بعد أن تمم على أبواب الحجـرات والمطبخ وطفايات الحـريق. وتراءى له أن كل الأمـور عـلى مـا يرام. وكله تمام التمام.

أقبل رجل يتـجاهد. أسـمر. عابس الـوجه. يرتدى قميـصاً رخيصـاً. يبرز من طوقه شـعـر صدره غزيراً. وبنطالاً واسعاً إلى حد ما. يحمل حـقيبة يد كالحة منبعجة عند وسطها قليلاً :

- السلامو عليكو.

قطع فـجـأة مـسـئول الاسـتـقـبـال دندنتـه. رد باقتضاب دون أن يرسم ابتسامته المعتادة :

- وعليكوم السلام.

- سرير فى حجرة لو سمحت.

- حـمـد الله ع السـلامـة. سـتـاشـر جنيـه والبطاقة.

أخرج الرجل حافظته فى إرهاق من جيب بنطاله

الخلفى. وضع ورقــة من فــئــة العــشــرين جــنيــهــاً. وبجـانبـهـا بطاقـتـه العـائليـة. تـناول مـسـئـول الاستقبال البطاقة. بص فيها. فاتسعت حدقتاه :

- الشرابية / القاهرة. آسف يا حضرة.

- ليه بس يا بلدينا ؟!

- دى تعليـمات السـيـاحة والأمن؛ لا يمكن نبـيت حد عندنا من نفس المدينة.

- يا أستاذ ...

قاطعه مسئول الاستقبال بسرعة :

- يا حضرة افـهمنى. تعليمات السـياحة والأمن واضحة .. كان بودى.

- يا أسـتــاذ اعـمل مــعـروف. يرضــيك أنام فى الشارع عشان تعليمات فاضية.

- يا حضرة ...

بسرعة خاطفة مفاجئة قاطعه :

- يا أستاذ إحنا بنقدر.

وبالسـرعـة نفـسـهـا أخـرج الرجل ورقـة فـئـة

خمسة جنيهات. نظر فى عينى مسئول الاستقبال نظرة مباغتة ذات معنى. ووضعها فوق العشرين أمامه على المكتب. نظر مسئول الاستقبال إلى الخمسة والعشرين جنيهاً - ويبدو أنه أجرى بينه وبين نفسه حسبة سريعة. فوجد أن ما يدخل جيبه الخاص من المبلغ يقارب العشرة جنيهات. هو فى أشد الحاجة إليها - فتلجلج وتلعثم لسانه ببضع كلمات لا رابط بينها ولا معنى. وهو ينظر إلى عامل الاستقبال تارة. وإلى الخمسة والعشرين تارة أخرى. طرق الرجل على الحديد. وهو ساخن كما يقولون :

- ما تخفش يا أستاذ: كلهم كام ساعة ويطلع النهار. وينتهى كل شىء.

زفر مسئول الاستقبال زفرة طويلة متصنعة. ونظراته القلقة الحائرة تتأرجح بين المبلغ وبين عامل الاستقبال شبه النائم.. ولما تأكد من استغراقه فى إغفاءته إلى حد ما. وضع الورقة فئة الخمسة

جنيهات فى جيب قميصه. أسقط الورقة فئة العشرين جنيها فى الدرج. وراح - فى سمت الفاحص المدقق - تقلب يسراه بطاقة الرجل ظهراً لبطن. ويمناه تسجل بياناتها فى دفتر كبير موضوع أمامه على المكتب.. مد يده ونزع من لوحة المفاتيح مفتاحًا فى ميدالية بلاستيكية مطبوع عليها اسم اللوكاندة وعنوانها :

- عبده. عبده. صحصح معاى وحياة والدك.

فرك عبده. عينيه مرهقاً. تثاءب. تمطى فى تكاسل. نظر إلى مسئول الاستقبال بعينين يخالط بياضهما عروق شعرية حمراء:

- فيه إية يا أستاذ حنفى ؟!

- طلّع الأستاذ حجرة ٩.

بحث العامل عن حقيبة أو أى شىء يحمله عن الأستاذ. فلم يجد إلا حقيبة يد صغيرة. يؤرجحها الأستاذ فى يده بقلق.. أخذ المفتاح المنزوع تواً من اللوحة. وتقدمه بضع خطوات :

- اتفضل معاى يا أستاذ.

صعد الرجل السلم خلفه حتى وصلا إلى الدور الثانى. دخلا طرقة طويلة خافتة الإضاءة .. بعد لحظة رأى الرجل وبصعوبة إلى حد ما عدداً من الأبواب المغلقة، مصفوفة على جانب واحد، وكأنها جنود يؤدون تحية عسكرية.. فى أحد ثقوب هذه الأبواب دس العامل سن المفتاح ففتحه بسهولة. أعطاه المفتاح، وراح يهبط السلم متمهلاً آملاً أن ينادى الأستاذ عليه، ويمنحه بقشيشاً، أى بقشيش حتى ولو نصف جنيه .. لكن ذلك لم يحدث؛ فقد انشغل الرجل - خلال الإضاءة الخافتة - بالبحث عن مفتاح الكهرباء حتى وجده. ضغط عليه فغمر النور حجرة رصاصية الطلاء، وامتد مستطيل من الضوء الشاحب إلى الطرقة المستطيلة.. وسط الحجرة تماماً سرير سفرى مفروش بفرش متواضع. ترابيزة فوقها مطفأة سجائر أمام كرسى فى جانب. ركنية صغيرة عليها دورق ماء وكوب من

الزجاج فى الجانب الآخر. فى أقصى الحجرة سلة
مهملات تحتوى على بضع معلبات متنوعة فارغة
وعدد قليل من أعقاب السجائر. شماعة
بلاستيكية مدقوقة بمسمارين فى الجدار بالقرب من
شباك السرير. ودولاب إيديال مغلق ينزوى بجانب
الجدار المقابل .. قبل أن ينحى المطفأة جانباً. ويضع
حقيبة يده على الترابيزه وارب جاره باب حجرة ١٠.
ألقى عليه نظرة باردة غامضة دون أن يتبادلا أية
كلمة. سرعان ما دخل حجرته وصفق الباب خلفه.
فمط الرجل شفته السفلى متعجبا .. خلع فردة
حذائه اليمنى دسها تحت السرير. خلع الفردة
الأخرى. ضربها بمشط قدمه فاستقرت مقلوبة
أسفل ركنية دورق الماء والكوب الزجاج. نزع فردتى
جوربه بسرعة. متأففاً من رائحتهما. كورهما
ورماهما على طول ذراعه فاستقرتا بجوار فردة
الحذاء المقلوبة .. أخرج شبشب الحمام. دس قدميه
فيه. خلع قميصه وعلقه على الشماعة بإهمال..

جلس على حافة السرير، وراح يؤرجح ساقيه شارداً زافراً زفرات طويلة صاهدة، تسيطر عليه حالة من القلق والاضطراب :

- لابد من حل، لازم لازم.

من جيب قميصه المتسخ أخرج علبة سجائره، علّقه ثانية على الشماعة، أشعل سيجارة، وراح يجذب أنفاسه فى شراهة وزهق.. يتنهد فى غيظ، يكز بأسنانه على شفته السفلى فى قسوة، ويغمض عينيه.

***

عندما وصل العامل إلى الاستقبال راح يضرب كفا بكف، عابس الوجه :

- الراجل ده والله العظيم يا مجرم يا مجنون، مش طبيعى، وراه مصيبة، يا حيجيب لنا مصيبة.

فى تلك اللحظة تنبهت كل حواس مسئول الاستقبال، واستنفر كل قرون استشعاره :

- بتقول كده ليه بس يا عبده ؟! عرفت منين !

بلاش افترا.

- نظرتى فى الشخص مابتخيبش. أقطع دراعى. الراجل ده وراه حكاية.

ولما كان مسئول الاستقبال يعرف جيدا - من خلال الزمالة الطويلة - أن فراسة عبده كثيرا ما تصدق. وأن نظرته فى الأشخاص - غالبا - ما أكدتها وقائع وأحداث سابقة. فأصابته رعدة حرص على مداراتها حتى يظل رابط الجأش أمام عبده :

- بلاش تهويل يا عبده. دا باين عليه غلبان. تلقيه هاجج من نكد مراته.

- والنبى انت اللى غلبان. أنا قلت لك. خلصت ضميرى. وانت حر.

- أنا مش فاهم إية اللى خلاك تحكم عليه الحكم ده ؟!

- ده إحساسى. وإحساسى عمره ما يكدب. وانت عارف.

شرد عبده بفكره لحظة. وأردف بسرعة :

- الراجل ده صعيدى يا أستاذ حنفى ؟

فى لمح البصر فتح الأستاذ حنفى - مسئول الاستقبال - الدفتر الموضوع أمامه على المكتب بيد مهزوزة، وراح يقلب صفحاته فى اضطراب ولهوجة:

- أيوه يا سيدى هو أصلاً صعيدى.

اندفع عبده كمن صدقت نبوءته :

- أقطع دراعى وأرميه للكلب. الراجل ده جاى فى وقت زى ده ياخد بتاره من حد هنا فى اللوكاندة.

فكر الأستاذ حنفى للحظة فى كلام عبده والرشوة التى تورط فيها. ففتح فمه على آخره، وسقطت روحه فى قدميه. لكنه تماسك ومثل دور من يستخف بالأمر :

- الصعايدة يا عبده اتنوروا خلاص، وحكاية الأخد بالتار دى انتهت.

- اسألنى أنا. الصعيدى صعيدى حتى لو طلع القمر. شوف بس فى الدفتر حد صعيدى

بايت عندنا.

راح الأستاذ حنفى يقلب صفحات الدفتر أمامه بأصابع مرتجفة، مركزاً نظراته على أسماء النزلاء، ومواطنهم الأصلية، ومحال إقاماتهم الحالية، وقد ركبته الهواجس، وتملكه الخوف تماماً.. فجأة صاح كمن لدغه ثعبان :

- هى فعلاً ليلة أسود من قرن الخروب؛ حجرة ١٠ بايت فيها صعيدى حجز عندنا امبارح بس.

- والعمل يا أستاذ حنفى ؟! إزاى نمنع الجريمة، اللى ممكن تحصل عندنا فى الليلة السوده دى ؟

هرش الأستاذ حنفى فى رأسه، راح يعصر مخه، وفجأة صاح فى حسم :

- اسمع يا عبده، نجيب صعيدى حجرة ١٠ نستضيفه هنا فى الاستقبال، ندردش معاه فى أى موضوع، نسهره لما يشقشق الفجر، ويبقى بعدنا البنزين عن النار.

- أنت بتهرج يا أستاذ ! مين ده اللى نجيبه؛

صعيدى حجرة ١٠ زمانه فى سابع نومة. إحنا نبلغ البوليس. وهو يتصرف.

هب الأستاذ حنفى فى وجه عبده صائحاً :

- دا انت يا عبده اللى بتهرج بجد. أو اجننت: هو إحنا حمل السين والجيم. واللطعة فى القسم يومين تلاته.

هرش الأستاذ حنفى فى رأسه مرة أخرى. سرح بفكره. قطب ما بين حاجبيه :

- اسمعنى يا عبده. أنت تطلع بسرعة. مفيش وقت. تقول لصعيدى حجرة ٩ إننا نضفنا له حجرة أوسع وأحسن فى الدور الرابع. تقنعه إن حجرته مش نضيفه. وما تلقش بسيادته.

- ينصر دينك يا أستاذ هيه دى. أيوه كده شغل مخك.

حينما وصل عبده - عامل الاستقبال - طرقة الدور الثانى رأى الطرقة المستطيلة يمتد فيها مستطيلان من الضوء الشاحب. ويتوازيان فى

الإضاءة الخافتة أمام أبواب الحجرات.. وليس هناك ما يدل أو يومئ إلى حدوث شيء غير عادى فهدأ تماماً.. راح - فى طمأنينة - ينقر بأطراف أصابعه على باب حجرة ٩ بهدوء شديد. فلم يجبه أحد .. راح ينقر على باب حجرة ١٠ فى هدوء أشد. فلم يجبه أحد أيضاً .. بعد لحظة طالت قليلاً أطل برأسه. فاتسعت حدقتاه. اختلط سوادهما ببياضهما. فتح فمه على آخره. وأصابه الخرس.

حـــارة ...!

ساعة الحائط فى الطرقة تواصل دقاتها الرتيبة بانتظام .. صباح الجمعة يتثاءب فى كسل.. يفرك عينيه فيرى شمس يونيو قد ملأت الدنيا. عم عوض بياع الفول والبليلة يحرك الكبشة فى بطن القدرة حركات دائرية قلقة. يتحلق حوله الصبية والبنات بغير نظام. فى أيديهم الصحون .

فى آخر الحارة عامل النظافة النحيل ذو البدلة الزرقاء يكوم القمامة ويتمتم عليها بباطن مقشته العريضة.. بعد خطوات منه عم مبروك البقال يرفع باب دكانه. مغمغماً ببضع كلمات. ويرهف السمع لتأوهات وصرخات مكتومة وغير مكتومة تصدر من البيت المقابل.

وها هى ذى عديلة كاوتش - هكذا يطلق عليها أهل الحارة - تعتلى حجرا على كتف الحارة كالعادة.

وأمامـهـا صاج ملـيء بسـقـط التفـاح. المغـمـوس فـى العـسـل الأسـود. وبجانبـه فـوق قفـص الجريد حـزم البصل الأخـضر والفجـل والجرجيـر. تلقم رضيعـهـا حلمـة ثديها الأيسـر فيكف عن البكاء على الـفور. بسرعة ترخـى طرف طرحتها الباهتـة على صدرها. وتتنهد .. ثم تمسك بغلاف كتـاب قديم. وتروح - بين لحظة وأخرى - تهش عن بضـاعتهـا الذباب اللحوح المعاند.

عند الكتف الآخر للحـارة تتربع على الأرض فايزة الدكـر - ربما أطلق عليـها ذلك لخـشـونة صوتهـا - واضـعـة يسـراها فـى وسطهـا. وبيمناها سـيجـارة. تمتص دخـانها بشـراهة. تفـرك يديهـا. وتزفر كلما بصت واحـدة مـن بلكونة أو نافـذة. ناضـرة الوجـه مسـبسبة المـقاصيص. ففـايزة الدكر امرأة جـرمة. عفية. دائماً متبرمـة. لا يعجبها العجب ولا الصيام فـى رجب.

نظرت فـايزة الدكـر إلـى عـديلة كـاوتش وصـاج

ســقـط التـفـاح والـذباب والرضـيـع ذى الملابس المتسخة. مطت شفتها السفلى. وغمغمت بكلام يشى بالقرف والغيظ. فلم تعـرها عديلة كاوتش أى اهتمام. ظلت قاعدة كافية خيرها شرها. زغرت لها فـايزة الدكـر زغـرة. تهـتـز لهـا ركب أتخن رجل فـى الحارة. شخطت فى حدة :

- لمى حاجاتك دى يا ولية. وغورى من هنا.

- يا فتاح. يا عليم ! قولى يا صبح !

- مش عجبك كلامى يا مره.

فى تلك اللحـظة كـان صـابر أبو مـحـمـد يقف قـدام بقالة عم مـبروك. مـتـوتراً. مشـوش الشـعـر والفكر. يفـرك كفـيه قلـقاً. وعم مـبروك منهـمك تماما فى تلبية طلبات الزبائن.

- علبة سجاير يا عم مبروك.

- باكو شاى يا عم مبروك. الميه ع النار.

- التليفون يا عم مبروك.

- قزازة الزيت. الفول برد.

- التليفون يا عم مبروك، أم محمد تعبانه، بتولد.

- اصطبر شوية، الدنيا ما طارتش !

- مشط كبريت يا عم مبروك.

- صابونه وش يا عم مبروك.

- التليفون يا عم، أم محمد على صرخه واحده .

- التليفون أهو قدامك يا صابر، خلصنا.

- ألو .. ألو .. ألو، الإسعاف.

- ... ...

- حارة كيلانى من شارع طه الدسوقى، الساحل.

- ... ...

- لأ، الحارة مش ضيقة قوى، فى عرض عربية الإسعاف.

- .. ..

- ممكن نشيلها، وننتظرك على ناصية الحارة فى شارع طه الدسوقى .

- ... ...

- بس ما تتأخرش. اعمل معروف.

حط صابر أبو محمد سماعة التليفون فى توتر. وزفر زفرة طويلة صاهدة. التفت فرأى فايزة الدكر ترفع عجيزتها الثقيلة متحفزة. والسيجارة فى يدها. سرعان ما كانت وجهاً لوجه وعديلة كاوتش. ملامح وجهها تشى بغضب جامح .. أطاحت بالصاج فتناثرت بقع العسل الأسود. وتدحرجت حبات سقط التفاح على أرض الحارة .. أفرز اللسانان السليطان دفعات سريعة متلاحقة من السباب والشتائم.. فزت عديلة كاوتش فى ارتباك فسقط رضيعها. شجت جبهته. وسالت دماء حارّة ساخنة. فركب عديلة كاوتش ألف عفريت. تشابكت الأيدى. وتلاحم الجسدان.. ضربت أكثر من امرأة بيدها على صدرها.

- يا نهار مش فايت فايزة الدكر حاتنفخ عديلة كاوتش كالعادة .

عـلا الصـياح ممتـزجـاً بالصـراخ اللاهف.. ثم عمَّ اللغط الحـارة. فـى اللحظة نفـسـهـا راحت البنت فكيهة تلم نفسها، وتعدل هدومها بعد ما باغتها الولد جاسر الحلوانى على بسطة السلم بين الثانى والثالث.

لاحت أم مـحـــمـد امـرأة صـابر فـى آخـر الحـارة محـمولـة على ترابيزه كـالحة مـقلوبة. يتعـاون فى حـملها أربع سـيدات عـفـيات، تحت إشـراف تفيـدة الداية، وسـيـدات أخـريات يمسكن بأطـراف مـلاءة مـفرودة. يسـترن أم مـحـمد من فـوق ومن الأجناب. يتقـدمهن صابر أبو محـمد بخطوات. يركن الطوب والأحجـار بجانب الحـيطان، ويحذر السـيدات من بؤر الوحل والطين. فكان المشـهـد يشبه خيمـة تتحرك فى حـرص. لفت انتـبـاه أهل الحـارة فى النوافـذ والبلكونات وأمام عتبات الأبواب.

كـانت أم مـحـمد تعض وسـادة مهتـرئة، وتصرخ كلمـا حـمى الطلـق .. دخلت المشـاجـرة بين فـايزة

الدكـر وعديلة كـاوتش فـى كـادر المشــهد. فتـوزعت نظرات أهل الحارة بين أم مـحمـد وحالة الوضع، وبين المشاجرة التى حمى وطيسها فى ذلك الوقت .

فجأة امتلأت العيون بالدهشة. اتسعت الحدقات غير مـصدقة؛ فايزة الدكـر مرمية مثل ذبيحة على الأرض خائرة الأعصاب. مفكوكة الشعر. دمها ينزف بغزارة من فتـحتى الأنف. مخمشة الرقـبة والصدر. وعديلة كـاوتش جاثمـة فوق صـدرها فى استـماتة. تكيل لها اللكمات فى غضب وغل. فتتنفس صدور أهل الحارة فـى ارتياح. وإن غالبـها التـوجس والشك فى حقيقة انتصار عديلة كاوتش على فايزة الدكر.

بعـد لحظة طالت قليلاً سـمع أهل الحارة صـوت سارينة عـربة الإسعـاف القادمة. ممتـزجاً بصـرخات ميـلاد طفل جديد .. وسـاعة الحائط فـى الطرقة لا تزال تواصل دقاتها الرتيبة بانتظام.

رؤيــا ...!

عـمـى الحاج عـز الدين هكـذا يقـابلنى فى مـيـدان عـام واسع، تحيط بـه بنايات عاليـة ومـحطة سكـة حـديد، شوارع تسـيـر فى كل اتجاه، يشـبـه مـيـدان رمسيس بالقـاهرة؛ أناس كـثيرون، سيارات مـختلفة الأحـجـام والموديلات، باعـة عـديدون يـفـتـرشـون الأرصفـة، وآخرون يتحركـون بين السيارات، ضـجيج ولغط لا أول له ولا آخـر .. الوقت أتذكره - تحـديداً - السـاعـة الـثـانيـة عـشـرة ظهـراً إلا دقـائق .. لم تخطئنى عيناه الصقريتان، شق الخلق حتى وصلنى بصـعوبة، صافـحنى بحـرارة وود ظاهر، وسرعـان ما عبست مـلامحه، مد يده فـاحتوت كفه الضـخمة قـفـاى، جذبنى إلـى صدره العـريض بقـوة فـارتطم صـدرى بشـىء صلب، كـان يـخـفـيـه تحت عـبـاءته الفضفـاضة.. ترك عنقى فاعتـدل وشمخ، راح يركز

نظراته الحادة في عيني.. ودون أن ينبس بكلمة أظهر لي - بحذر شديد - من فتحة عباءته العليا فوهتي بندقية بروحين فبهتُّ، بل شرد عقلي .. لكزني في كتفي الأيسر لكزة خفيفة، وربت على شعر لحيتي، الذي أطلقته منذ شهور حتى كاد يلامس صدري .. ثم مضى في طريقه مسرعاً دون أن يصافحني مصافحة الوداع، ويشد على يدي بكلتا يديه كعادته.

نهضت من نومي ينزُّ جسدي عرقاً، شاعراً بجفاف في حلقي، وصداع خفيف يشمل كل رأسي.. استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وتمتمت ببعض أدعية، أحفظها عن ظهر قلب.. زوجتي بجواري على السرير بقميصها الروز تغط في نوم عميق، ولا على بالها، تحركت فأصبحت التسريحة في مواجهتي، على ضوء "الأباچورة" الباهت رأيت نفسي أنقسم على نفسي.. خرجت إلى الصالة كانت هادئة، وقطرات الماء تتفلّت من

صنبور حوض الوش، فتخدش ذلك الهدوء الحريرى .. الأولاد فى حجرتهم البرج يأكلون أرزاً باللبن مع الملائكة، والدنيا هس هس.

نظرت إلى ساعة الحائط فوجدت عقاربها تشير إلى الخامسة صباحاً، لحظة وراح صوت الشيخ نصر الدين طوبار يلامس أذنى بحنو، مترنما بتسابيح فجر جديد .. فتحت الثلاجة ورطبت حلقى بكوب ماء، فنزَّ العرق أكثر من كل مسام جلدى رغم برودة ديسمبر القارسة فى تلك الليلة.

رحت أستعيد - بينى وبين نفسى - تفاصيل الرؤيا .. وأتعجب! فالعم عز الدين، شب وعيى، وأنا أراه رجلاً طويلاً عريضاً، ملء هدومه، طيباً، تبدو على سيماه مخايل نجابة وعز قديم.. كان - ولا يزال - متحدثاً لبقاً؛ يقنع الجن بوجهة نظره - علما بأنه لم يحصل إلا على الابتدائية الأزهرية - يثق بنفسه فى غير غرور، ذو شخصية جريئة، لا يخشى فى الحق لومة لائم، بفضل تلك الصفات

فاز بأكثر من دورة فى انتخابات مجالس القرى. دون أن يبذل جهداً يذكر .

آه .. تتابعت التساؤلات تناوش رأسى المجهد. وتطيّر النوم من عينى : ما الذى أتى بعمى عز الدين من قريتنا القابعة هناك فى أعماق الريف إلى ذلك الميدان المزدحم ؟!.. ولماذا قابلنى فى ذلك الميدان. وفى ذلك التوقيت بالذات ؟! فهو يعرف جيداً عنوان سكنى بشبرا. وقد زارنى فيه أكثر من مرة .. ولمَ أخفى البندقية تحت عباءته. وهو الذى لا يخشى أحداً. ويقول للأعور أنت أعور فى عينه ؟!.. لماذا جذبنى تلك الجذبة القوية. وضمنى إلى صدره بعد ما صافحنى بود ؟!.. لماذا أرانى فوهتى البندقية فكانتا مثل عينى بومة. وهو الذى لم أره يوماً يحمل سلاحاً. بل كان يرى فيمن يحمله ضعفاً. أو عدم ثقة بالنفس. ويتحسر على زمن الفروسية: حين كانت تتم المواجهة بين أى خصمين وجهاً لوجه ؟! .. لمَ تركنى هكذا ومضى مسرعاً. دون

كلمة تضىء ظلمة حيرتى، أو تكشف غيابة تلك الرؤيا، وهو الذى كان يحادثنى أثناء زياراتى لقريتنا بالساعات دونما كلل أو ملل.

كانت دارنا تزدحم بأكابر بلدتنا، تلك الناعسة فى حضن النيل هناك، وسطهم يجلس العم عز الدين مهيباً بجلبابه الكشمير الرمادى، وشاله الأبيض المزهر، والصينية الكبيرة تدخل إليهم، محملة بفطائر الزبدة الساخنة وأطباق العسل الأبيض.. بعدها أكواب الشاى وفناجين البن، ورائحة عراقة وعز قديم تفوحان فى المكان، والأحاديث بين الرجال لا تريد أن تنتهى.. أحياناً كنت أختلف والعم عز الدين فى رأى أو قضية، وأروح بحماس الشباب أقارعه الحجة بالحجة، يبتسم الرجل فى سعادة وثقة، يمد يده ويربت على ظهرى بحنو بالغ.. وحينما يعلو صوتى محتداً يعبس وجهه، ويقطب بين حاجبيه : "علو صوتك دليل على ضعف موقفك ..."

فتزغر لى عيون الكبار فى المجلس تنبهنى أن ألزم

حـدودي: فــلا يصح أن أرفع صــوتي هــكـذا، وعلـيَّ أن أحترم شــيبة الرجل فأصمــت مضطراً، وأكتم رأيي، كاظماً غضبي في آن.

ولما كنت لا أنام إلا على وضــوء، مضطجــعاً على شــقي الأيمن؛ فـقـد اســتـبـعـدت تماماً أن تكون تلك الرؤيا أضغاث أحلام.

شــغلتني الرؤيا كثـيـراً فاحـتـلت بؤرة شـعـوري .. شرد فكري في دروب شتى، وأنا مــا لي خبرة أو قدرة في تأويل الرؤى؛ من ثم أرجأت الأمر كله إلى الصباح حتى أسأل الأصـدقاء أو الزملاء فربما تهـدأ مخاوفي وتســتـريح نفسي.. صـفـقت البـاب خلفي، مســرعاً الخطى لألحق بصلاة الفجر حاضراً في جماعة.

***

حــينمـا دخلت ســاحـة المـسـجـد خـشـع قلبي، غــمرنــي إحســاس بالراحـة والســلام .. في اللحظة التي عــزمت فيــها على مـفاتحـة إمام المسجـد في تفسير رؤياي سـمـعت صوت عمي عز الدين فكذبت

أذنى .. وحينما رأيته من ظهره يؤمنا هززت رأسى نافيا، بل كذّبت عينى، ورفعت ذراعى مكبراً تكبيرة الإحرام.

عقب صلاة الفجر مباشرة رأيته رأى العين؛ هو هو عمى عز الدين بشحمه ولحمه، هو بعينه .. هرولت إليه، ناديت عليه باسمه، اقتربت منه، حاولت مصافحته، وبسمتى الواسعة تملأ ساحة المسجد، فلم يمد يده! أو يلتفت إلىَّ، أسرعت الخطى فسبقته، وقفت قدامه مندهشاً من تصرفه، فلم يعرنى أذنى اهتمام، وكأنه لا يعرفنى، قصصت عليه رؤياى بإيجاز شديد، طالباً التفسير، بسمل وحوقل، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم .. ثم مضى مسرعاً عابسة ملامحه، قاصداً باب الخروج دون أن يبادلنى كلمة واحدة، حاولت محادثته فنظر لى بفوهتى عينيه الصقريتين نظرات حادة زاجرة، أسرع خطاه ضارباً كفا بكف، وتركنى أضرب كفا بكف.

بعد لحظة خاطفة غمرتها الدهشة وعلامات الاستفهام الباحثة عن أية إجابات اخترق أذنى صوت سارينة البوكس، آتياً من الخارج فأخذت أفكر بسرعة فى وسيلة للفرار، وقد ضاعت من رأسى كل الرؤى والأحلام.

؟

عم مصطفى كوَّاء شارعنا يخطو نحو الرابعة والسبعين. يمشى بخطوات واثقة. طرياً صلباً مثل عود خيزران. فوجئت أن "ناهد" ابنة الثانية والعشرين. نوارة شارعنا تحبه.. بعد صراع كصراع العشاق الكبار. تزوجته. ورضيت - عن طيب خاطر - أن يكون لها ضرة ذات عزوة. وربما لا تصدق - مثلى - أنها أنجبت من صلبه طفلاً سبحان من خلق.

الحقيقة عم مصطفى رجل ملء هدومه. طول بعرض. ذو ابتسامة ساحرة وبشرة نقية ناعمة .. يرتدى البناطيل الكشمير والفانلات الصوف فى عز الصيف. يمناه لا تهتز. وجفنه لا يرتجف حتى فى أشد لحظات الانفعال.

يبدأ يومه بصلاة الفجر وتلاوة ما تيسر من الذكر الحكيم بصوته الرخيم.. ثم يشرب الحليب

الدافئ مخلوطاً بعسل النحل .. يصوم يومى الاثنين والخميس بانتظام. أما بقية أيام الأسبوع فيتناول ما يحلو له من طعام بكميات معتدلة. عشاؤه عادة من الزبادى والفاكهة.. يمشى بحكمة تؤكد أن عود الخيزران أطول عمراً من فرع الجميز.

.. يحب الريحان. ويعشق كل ما له علاقة بالورود .. أحبُّ الجلوس معه. والاستماع إلى أحاديثه الجذابة؛ فهو عاشق من طراز فريد. يجيد الحديث عن النساء. خبير بخبايا ألاعيبهن.

بدايته مع النساء - طبقاً لروايته - ترجع إلى زمن بعيد؛ أيام شبابه .. حين تصدى - وحده - لسيد البلطجى وعصابته. حينما استأجرهم صاحب بيت بشارعنا ليضربوا محمود الصراف. ويطردوه من شقته عنوة واقتداراً. يومها سحب شومته وشج بها رأس سيد البلطجى نفسه. فسالت الدماء تغطى وجهه. ففرَّ و عصابته مثل أرانب مذعورة. والنساء فى النوافذ والشرفات

يزغردن، والعيال يهللون.. بعدها لاحظ أهل الشارع أن عم مصطفى صار محل إعجاب وتقدير نساء الشارع كله.

بلغت زيجاته سبع زيجات.. طلق، دفن، ودع - أكثر من مرة - لم يره أحد يوماً منكسراً أو كاسف البال، بل يراه الناس مفرط الأناقة، مهندم الملبس، ذا حذاء لامع دائماً.

***

حينما سمعتُ بأمر زيجته الثامنة - خلال حديث عابر وزوجتى - بعد عودتى من سفرة عمل، قاربت الثلاث سنوات .. قلت لزوجتى، وأنا أضرب كفا بكف :

- الراجل العجوز ده اتجوز البنت الصغيرة دى إزاى ؟!

- أنا عارفه يا اخوى ! بيقولوا البت شافته فى فرح بنت محمود الصراف، واتلحس عقلها، كانت بتروح الجامعة وخلاص حاتاخد الشهادة الكبيرة،

وبيقولوا الراجل كان عينه منها من زمان. نهايته انشغلت به. لخبط حالها. وكان سبب سقوطها في الكلية أكتر من سنة. زي ما يكون كان عامل لها عمل. والله الراجل ده متصل بالجان أو عليه أسياد. ربنا يجعل كلامنا خفيف عليهم.

– جان إية .. وأسياد إية يا ولية ؟! بلاش كفر وكلام فارغ.

انخفض صوت زوجتي حتى صار همساً خجولاً :

– ما أنت قايل قبل كده بعضمة لسانك إنه لابس على لحمه شبكة صياد. وشايل في جيبه حجاب من عضم ميت عجوز. وإنه كل كام يوم يروح ينام في القرافة. والنبي يا اخوي الراجل ده مخاوي.

– لكن ده خلف كمان ! دا أنا كنت فاكره مات وشبع موت.

– ده يعجّز ده ! ولا يموت ! هو عمره شال هم. دا ضحكته بتسمع آخر الشارع.

- دا ولاده رجالة بشنبات. مش مكسوف. دا كبر وخرف بصحيح.

- هو ده يهمه أولاد ولا غيره. دا قلبه ميت. طول عمره بتاع مزاجه وضارب الدنيا صرمة. دا قلب دكانه سوبر ماركت بفلوس ولاده اللى بره. كل يوم بيكسب شىء وشويات. وبيلعب بالفلوس لعب.

قلت لزوجتى. وأنا أخفض صوتى حتى لا يسمعنى أطفالى:

- تلاقى البت كانت بتحب حد. وحبت تغيظه فاتجوزت عم مصطفى. ربنا يستر على ولايانا.

رفعت زوجتى صوتها محتدة فجأة على غير عادتها :

- ليه !؟ هو عم مصطفى شويه ولا أيه ! دا أحسن من شباب اليومين دول. البت حبته. والقلب وما يريد. قالت لأبوها : "مش حاجوز غير مصطفى ولو قعدت العمر كله من غير جواز". وكانت فضيحة فى الشارع.

- إزاى بت تحب واحد أكبر من جدها ؟!

- لكن أبوها فى النهاية وافق.

دارت ضحكة انفلتت بكم جلبابها. وقالت :

- تتصور إنها قالت لأبوها "حا هرب معاه واجوزه لو ما وفقتش".

- وأبوها. أهلها وافقوا كده على طول ؟!

- الحق ينقال. أبوها كان شاكك فى حكاية السحر دى. قبل ما يوافق لف على مشايخ كتير. وما وصلش لحاجة. أبوها قال : "إذا كان هو ده الوضع فلازم نعمل بالشرع". ونفذ رغبة البنت بدل وجع الدماغ.

***

دفعنى فضولى الزائد إلى أن أعرف المزيد من أسرار هذا الرجل المزواج محل إعجاب النساء. وخالب عقول البنات.. بالطبع لم تتح لى فرصة التحدث و "ناهد"؛ فهى تقيم فى شقتها الجديدة المجهزة بكل الأجهزة العصرية ووسائل الترفيه. لا

تخرج، لكن صديقاتها وقريباتها يقمن بزيارتها، خصوصاً حميدة حكيمة المركز الصحى، التى وفقت الرأسين فى الحلال ببراعة وحنكة .

فاتحت أحد أقارب "ناهد" فى موضوع زواجها من عم مصطفى - بشكل غير مباشر - فقال :

- البت طول عمرها نفسها تعيش مستريحة، ما بتحبش الشباب ولا طيشه، بنت حظ، والراجل كمان ابن حظ، يا شيخ ملعون أبو النكد والفقر، بيقولوا إنهم اتقابلوا فى مولد "السيدة" ما عرفش إزاى ؟! وبيقولوا إنه كان بيلعب نيشان، لعب المدفع الحديد وفاق الشبان، بيقولوا إن "ناهد" حبته يومها، وبيقولوا دا عمل لها عمل، لكن ما حدش يعرف الحقيقة، نهايته أهى عايشة مستريحة وسعيدة .

السؤال لا يزال قائماً: كيف تزوج عم مصطفى "ذو الأربعة والسبعين" من "ناهد" ذات الاثنين والعشرين ؟! .. أليس هذا هو عدم التكافؤ بعينه ؟!

سألت إحدى زوجاته القديمات، والتى لا تزال على

قيد الحياة. وعلى ذمته حتى تاريخه. فسبت ولعنت .. ثم قالت : "الراجل أصله بيلعب فى السحر. وصحته حديد. عمل للبنت عمل فوقعت فى حبه. ولاّ يمكن طمعانه تورثه. وتطلع لها بقرشين. بكره تفوق. ونقعد على الحيطة ونسمع الزيطة. ربنا يهده قادر يا كريم".

لم يكن أمامى إلا الحديث وعم مصطفى نفسه حتى أشبع فضولى.. قلت بابتسامة ودود وبشكل حميمى :

- يظهر إن الحب ده موهبة يا عم مصطفى.

ضحك ضحكته العالية الرائقة مطوحاً رقبته للوراء كعادته :

- لا موهبة ولا حاجة يا ابنى. المسألة مش عايزة أكتر من شوية صبر.

نظرت إليه متسائلاً. فابتسم ابتسامته الساحرة :

- فكر أنت فى أى واحدة. اقنعها إنك بتحبها

ولو بالتمثيل، وبص فى عينيها، حا تقولك عينيها ممكن يحصل اللى انت عايزه ولا لأ.

شرد لحظة .. ثم قال :

- فاكر لما جيت تاخد منى بدلة أبوك أيام ما كنت شغال مكوجى، وكشفتك.

- فاكر.

- كان عندك سنتها بتاع ستاشر سنة، وكنت بتشرب سجاير .. فى السر طبعاً.

- صح.

- يومها قلت لك بمنتهى اليقين والثقة : "أنت بتشرب سجاير"، ما حدش كان قاللى، لكن بصيت فى عينيك وحسيت، وانت مندهش ومستغرب: إزاى عرفت ؟! هو ده الإحساس باللى قدامك. المهم تفهم اللى فى دماغه، وتحركه لصالحك بثقة وشجاعة، تمام زى لعبة الكوتشينه. الدنيا دى يا ابنى ورق كوتشينه، والشاطر اللى يرمى الورقة المناسبة فى ألوقت المناسب. أنا صحيح مارحتش

مدارس ولا يحزنون. لكن الحياة علمتنى كتير. كتير قوى .

ثم صمت لحظة خاطفة وقال فى دهشة :

- أنا اجوزت "ناهد" على سنة الله ورسوله. والبنت راضية وسعيدة. وما حدش يقدر ينكر ده. ليه الناس ماتبقاش فى حالها. وتسيب الملك للمالك ؟!

بهتُّ فانسحبتُ من قدام عم مصطفى أتعثر فى خجلى.

غـــــروب

على باب شقتنا تعالت طرقات، طرقات غريبة !
إننى أميز جيداً طرقات أقاربى وأصدقائى وزملائى، أعرفهم بأسمالهم الرخيصة، وأصواتهم المشروخة، ومشكلاتهم المألوفة .. هرولت فى اتجاه الباب يسابقنى فضول كبير، فتحت فاحتوتنى دهشة مفاجئة، خيمت لحظة صمت معاندة ..

لم أدر كم لبثت على تلك الحال، تنبهت على صوت أنثوى امتزج بالرقة والتوسل والحزن فى آن :

- ممكن أدخل ؟

لحظت أن الباب مازال موارباً، وأننى أقف كتمثال، جذبت الباب، وتراجعت خطوة للخلف، قلت متلعثما :

- تفضلى !.. تفضلى !

انحنيت أقبّل أطفالها - البنتين والولد - وأنا أنثر كلمات الترحيب لأخدش صمتاً يحاول أن يتواصل، متوجهاً إلى حجرة والدتى العجوز، المقيمة الوحيدة بالشقة معى، بعد أن شرّقت الدنيا وغربت بإخوتى فى بلاد الله. لحظة انفراج باب حجرة الوالدة انخرطت فى بكاء، تخلله نحيب متقطع. أخذت والدتى تهدئ من روعها بصوت هادئ وقور، وهى تحرك حبات المسبحة بين أناملها .. بينما رحت أتساءل - بينى وبين نفسى - عشرات الأسئلة : هل ... ؟ ومتى ....؟ وكيف....؟ وأين ...؟ ولماذا ... ؟.

***

الليل يجثم بصمته الثقيل على بيوت حينا الفقير اللهم إلا من نباح كلب أو مواء قط .. ضوء السهارى كان شاحباً كابياً، يرسم على الحيطان والكائنات أشكالاً خرافية، وأنا كطفل ألوذ بحضن أمى الدافئ الطرى، وهى مستغرقة فى سابع نومة

كنت لحظتها بين اليقظة والنوم. رأيته يتسلل إلى الحجرة على أطراف أصابعه. مركزاً نظراته القلقة على وجه الأم. فانتبهت. ركزت. داخلنى خوف .. رأيته. "بكرى" أخى الأكبر !.. اهتزت المقاييس فى رأسى. فى البداية ساورنى شك. لكننى حينما دققت النظر تأكدت. فتح ضلفة الدولاب بهدوء وحذر شديدين. ويداه مدسوستان فى جورب. أخرج كيساً أسود اللون. لفه بسرعة ووضعه تحت إبطه الأيسر. وحينما نظر تجاهى تظاهرت خائفاً بالاستغراق فى النوم. تنهّد بصوت مكتوم.. ثم خرج بظهره منسحباً على أطراف أصابعه. ساحباً نظراته الحذرة شيئاً فشيئاً من على وجه الأم. وترك باب الحجرة مفتوحاً رغم شدة البرد.. احتلت ملامحه المخيفة بؤرة مشاعرى. فدبت فى أوصالى رعشة خوف.. ازددت التصاقاً بصدر أمى. ولم أدر متى غلبنى النوم.

فى الصباح لاحظت أمى أننى بللت الفراش

فاندهشت أن يفعل ذلك طفل تجاوز السبع سنوات، لكنها بدلت ملابسى على عجل، وفردت المرتبة على الشرفة فى الشمس، قبل أن تذهب إلى عملها كمساعدة فى مستشفى.

***

لم يمر ذلك اليوم ككل يوم، وربما فى نهايته نسيت كل شىء لكن فى المساء رأيت أمى تصرخ، تشق طوق الثوب، تصيح :

"ضاعت تحويشة العمر، عشرة آلاف جنيه، جنيه ينطح جنيه، حق أولادى الأيتام يا خلق ...".

أردت أن أقول شيئاً فصوّب أخى بكرى نظراته المتوعدة إلىَّ فانخرست .. ورويداً رويداً تجمع حول أمى سكان البيت .. اختلطت الأصوات، وعلا اللغط معبراً عن الدهشة والاستنكار للجرم ... فرك جارنا العجوز الحاج وهدان كفيه متحرجاً، حوقل .. ثم ارتفع صوته فى حزم : "السارق ليس غريباً يا أم بكرى، من أين اشترى بكرى الشبكة ؟ من أين دفع

مـهر ناهـد حبـيـبتـه صـباح اليـوم ؟.. مـاذا جنيت بإصـرارك علـى الرفـض ؟.. هل يفـيـدك الآن دمـاغك الصلب ؟ كـفـى عن إلصـاق التـهم بالخلـق. بلغى الشرطة لتعرفى أن كلامى هو الصح".

ردت أمى بصـوت ذابل. كـاظـمـة بركـان الغـيظ. ونبرات صوتها تعبر عن منتهى الحسم :

"سـأقـضى عليـه بيـدى؛ فـمـوته أفـضل من أن يعيش كلص ...".

فرد الصمت جناحيـه على المكان. وانصرف الجمع رجالاً ونـساءً وغلمـاناً. تنهد الحـاج وهدان وهو يغلق باب شقته. متمتماً بالآية الكريمة :

" ... إن مـن أزواجكـم وأولادكم عـــــــدواً لكـم فاحذروهم ..." (1)

***

التفتت أمى إلى بكرى وحدقت فى بؤبؤى عينيه.

(١) سورة (التغابن) الآية (١٤).

فسقطت نظراته أسفل قدميه. تلجلج. اصفر وجهه. غرست أظافرها فى لحم كتفيه. جرجرته بقسوة على الأرض. وعيناها تقدحان بالشرر. تملص من بين يديها بحركة ماهرة. وكأنه لاعب سيرك. فرَّ هارباً. لم نره. أو نعرف عنه شيئاً منذ ذلك اليوم. اعتبرناه قد مات .

وها هى ذى زوجته تفجؤنا بهذه الزيارة الباكية لتوقظ ماضياً دفن من زمن. وتهز كيانى بشدة. كيان شاب شاعرى الوجدان مثلى .. دورت فى فراغ الشقة مضطرباً دونما هدف .. ثم ذهبت إلى باب الشقة واحكمت رتاجه؛ حتى لا يسمع متطفل شيئاً. فإذا كان واحد يحب فهناك عشرة يكرهون .. دموعها تتحدر على خديها. ونظراتها الحائرة مصلوبة على الأشياء. البنتان والولد يقفون فى وجوم ودهشة متسائلة. نحيبها يسترسل فى صوت منطفئ النبرات. لا شعورياً ثرت ثورة من نفد صبره فارتفع صوتى :

- كفى، ما الموضوع بالضبط ؟!

دنت منى بضع خطوات خجلى، وهى تكفكف دموعها .. هدأ روعها إلى حد ما، تكسرت الحروف فوق شفتيها الزرقاوين، شعرت أمامها أنى عملاق، وهى تتأقزم.. كان شعوراً مريحاً، رطب نفسى إلى حد ما، حملقت برهة فى سقف الحجرة .. وقالت :

"اعذرونى، لم أجد غيركم ألجأ إليه، فالدم لا يمكن أن يكون ماءً، والظفر لا يخرج من اللحم .. ابنكم .. الفشل الكلوى كاد يقضى عليه، و ..."

قاطعتها فى حدة :

- أخى .. بكرى .. الفشــل الكلــوى، ومتى ...؟ أنت ...

صرخت قاطعتنى :

"اسكت، أبعد نظراتك اللائمة عنى، أنا مخنوقة خلاص، آخر جنيه من ثمن الأثاث أخذه صاحب أجزاخانة الشفاء، تحملت كثيراً، بذلت قدر المستطاع، لكن العين بصيرة واليد قصيرة".

قذفت بكلماتها فى وجهى، وسرعان ما ضمتها لوحة الصمت الثلجى... دقت أمى صدرها - أكثر من مرة - فى حركات سريعة متلاحقة، وفجأة مزقت صرختها الصمت :

- بكرى مات من زمان يا بت الناس.

صدر للكاتب

١ - "السيف .. والوردة" - قصص قصيرة - يوليو ١٩٨٨، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢ - "السمر ذوو العيون الذهبية" - قصص قصيرة مختارة من الأدبين الإنجليزى والأمريكى - مترجمة عن الإنجليزية، بتقديم للدكتور : ماهر شفيق فريد - يناير ١٩٩٤ - عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣ - "الجدة حميدة" - مجموعة قصصية - مايو ٢٠٠١ - عن سلسلة "الكتاب الفضى" التى يصدرها نادى القصة بالقاهرة. كما صدرت فى مشروع "مكتبة الأسرة" لعام ٢٠٠١.

٤ - "أوراق .. ومسافات" - قراءات فى الأقصوصة المصرية المعاصرة - عن سلسلة "كتابات نقدية" - العدد ١٢٠ - التى تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة.

قيد الطبع

- فى الرواية والقصّة القصيرة .

المحتوى

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢٦٨- مكاشفات شخصية .... شعر : بهاء جاهين

٢٦٩- أقانيم .... قصص : اسماعيل البنهاوى

٢٧٠- مرايا الذات الأخرى .... رحلة : صبرى حافظ

٢٧١- ديوان غزالى .... كابتن غزالى

٢٧٢- الصنم .... رواية : أشرف الخمايسى

٢٧٣- منازل القمر .... قصص : سُمية رمضان

٢٧٤- مواقيت البهجة .... قصص : عزت القمحاوى

٢٧٥- عضم خفيف .... شعر : سعدنى السلامونى

٢٧٦- حافة الود .... رواية : نبيل نعوم

٢٧٧- صانع الصدمات .... قصص : أسامة خليل

٢٧٨- السبعة .... شعر : عادل عزت

٢٧٩- عشرين سنة على سلم المترو.. شعر : حمدى عبد العزيز

٢٨٠- ضرورة الكلب فى المسرحية... شعر : جرجس شكرى

٢٨١- نجع السلعوة .... رواية : أحمد أبو خنيجر

٢٨٢- طائر الفخار .... شعر : محمود نسيم

٣٨٣- كائنات هشة لليل .... رواية : صلاح والى

٢٨٤- قبض الريح .... قصص : شحاته عزيز جرجس

٢٨٥- أغادر جسدى .... شعر : أحمد السواركه

٢٨٦- بعدين .... شعر : صلاح الراوى

٢٨٧- الوفاة الثانية لرجل الساعات..... رواية : نورا أمين

٢٨٨- عبير الكمنجات .... شعر : عزت الطيرى

٢٨٩- نتهجى الوطن فى النور .... شعر : سمير الفيل

٢٩٠- رائحة النعناع .... رواية : حسين عبد العليم

٢٩١- امرأة يروق لها البحر.... شعر : عبد الناصر هلال

٢٩٢- قوة الحقائق البسيطة........... شعر : عزت عامر

٢٩٣- شهيد الوطن ..... شعر : متولى عبد اللطيف

٢٩٤- الكوشة .... رواية : أمين ريان

٢٩٥- عالم تانى .... شعر : عمرو حسنى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)